قطوف المعرفة

قطوف المعرفة

قطوف اجتماعية

قطوف تاريخية

قطوف حضارية

قطوف أدبية

قطوف صحافية

تأليف

بشير العوف

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلامياً

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ العربيّ الأميّ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقد تسنّى لي خلال فتراتٍ متراخيةٍ من العمر أن أقوم باذاعة بعض الأحاديث الدينية أو الثقافية أو الأدبية أو الاجتماعية من مختلف محطات الاذاعة في البلاد العربية.

كما تسنّى لي أن أقوم بإذاعة قسم كبير أيضاً منها عبر محطة اذاعة لندن باللغة العربية. حتى تجمّع لديّ عدد كبير من هذه الأحاديث، التي تنوعت موضوعاتها وتقاربت غاياتها. بحيث أصبحت أشبه ما تكون بقطوفٍ يانعة فيها من كل موضوع خبر. وعن مطلق تطوّر قبس. وذلك بالاضافة إلى عدد كبير من البحوث والمقالات التي نشرتُها في مختلف الصحف والمجلات العربية والاسلامية.

وفي وقت من الأوقات، اعتقدت أن هذه الأحاديث والبحوث والمقالات التي أثنى عليها كثير من القراء ومن مستمعي الاذاعات العربية، لا بدّ من أن تكون ذات فائدة للمتتبعين فيما إذا جمعتْها دفّتا كتاب، أو صارت قريبة المأخذ سهلة التداول.

ولهذا استخرت الله وعزمت على اصدار بعض مقالاتي وأحاديثي الاذاعية في كتب مسلسلة، سميتها:

« قطوف المعرفة »

وإني أقدم اليوم « الجزء الأول » منها على أمل أن يأذن الله وتسمح ظروف العمل بمتابعة اصدار الأجزاء الباقية، ذلك لأنني حين عدت إلى شرح هذه البحوث، وتهذيبها، والتعليق عليها بما يفرضه واجب التأليف والنشر، رأيت أن هذه المهمة، أي مهمة الشرح والتعليق والتهذيب، أصعب من مهمة التأليف والإنشاء، وهي تتطلب وقتاً أكبر من وقت سابقتها، إلا أنني استعنت بالله وأقدمت... وها هو « الجزء الأول » من كتاب « قطوف المعرفة » قد أصبح ـ والحمد لله ـ في متناول أيدي القراء. ولعلهم واجدون فيه شيئاً من الفائدة إلى جانب ما أتمناه لهم من حسن المتعة والاطلاع الأوسع.

كتاب « قطوف المعرفة » هذا، يشتمل على خمسة أقسام:

الأول: قطوف اجتماعية.

الثاني: قطوف تاريخية.

الثالث: قطوف حضارية.

الرابع: قطوف أدبية.

أما **القسم الخامس**، وقد سميته « قطوف صحافية » فهو عبارة عن محاضرة عنوانها:

« طرائف الصحافة بين الدين والأدب والتاريخ ».

سبق لي أن ألقيتها في المركز الثقافي الاسلامي في بيروت. وتناولت فيها تاريخ الصحافة بشيء من الايجاز منذ أقدم العصور حتى الآن، مع ما طرأ عليها من فنون التطور والتقدم والشواهد المعاصرة. وهي ـ أي هذه المحاضرة ـ مقتبسة من سلسلة محاضرات عن (الصحافة: تاريخاً وتطوراً وفناً ومسؤولية)

سبق لي أيضاً أن ألقيتها في كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة الملك عبد العزيز بجدّة (المملكة العربية السعودية) وخصصت بالقسم الأكبر منها طلابَ معهد الاعلام في الجامعة المذكورة. وهذه المحاضرات ستصدر قريباً ـ إن شاء الله ـ في كتاب مستقلّ يتضمن زبدة المعلومات عن تاريخ الصحافة العالمية بوجه عام، وعن تاريخ الصحافة العربية والاسلامية بوجه خاص.

وأملي أن يكون هذا الكتاب عوناً للمثقفين والصحافيين وطلاب معاهد الاعلام في العالمين العربي والاسلامي. يساعدهم على معرفة ما يتوقون إلى معرفته من شؤون الصحافة وشجونها...

ختاماً: أقدم اليوم إلى قرائي الأعزاء كتابي الجديد هذا. « قطوف المعرفة » ليضيفوه إلى سلسلة ما قدمته اليهم من مؤلفاتي السابقة في الأدب والقصة والاجتماع والفكر السياسي المعاصر، راجياً أن يجد لديهم فرصة التلقي وحسن القبول، والله تعالى هو المسؤول ليجعل جميع أعمالي خالصة لوجهه الكريم هو حسبي ومستعاني، وهو نعم المولى ونعم الوكيل.

بيروت في ٢٥/ رجب /١٤٠٣ هـ

٨/ أيّار « مايس » /١٩٨٣ م

بشير العوف

القسم الأوّل

قطوف اجتماعيّة

- رمضان في المجتمع الاسلامي...
- الأدب الاجتماعي عند الامام الغزالي...
- استقصاء طريف حول الاسماء والألقاب...
- التفاؤل والتطيّر عند العرب...
- التمائم والرّقى في جاهلية العرب...
- طاولة الزهر على مدى التاريخ...

رمضان ...
في المجتمع الإسلامي

شهر رمضان، شهر كريم محبّب، يستقبله المسلمون في أنحاء الأرض بإكبار وترحيب، ويحيطونه بهالات تعبّدية، وخلقية واجتماعية خاصة، فاذا وافى رمضان، وافى معه الاقبال على الله تعالى بالطاعات والعبادات، كما وافى معه الصفاء الخلقي والايناس الاجتماعي، والتأدب بآداب كأنها كُتبت، لتكون آداب رمضان.

ويبدو أن هذه الهالات الخاصة برمضان، قد نمت وترعرعت مع تطاول العهد ومرور الزمن، حتى لكأن كل عصر من عصور المسلمين، قد أضاف اليها لوناً من الألوان، لتغدو ثوباً قشيباً، يتميز بملامح حلوة، تعبّر عن قدسية الروح وجمال النفس وحلو الطباع.

وحين ولد شهر الصيام المبارك، ولدت معه هذه الملامح الحلوة على لسان النبي الكريم، وفي عهد أصحابه وخلفائه.

فرض الله الصيام على المسلمين، في السنة الثانية للهجرة النبوية، لليلتين خلتا من شعبان، فأنزل الله على رسوله الآيات الكريمات:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكمُ الصِّيَامُ، كما كُتِبَ على ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقون. أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أيّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَه فِدْيَةٌ طَعَامُ مسكين. فَمَنْ تَطَوَّع

خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهْ . وأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] .

ونزلت الآية التالية : ﴿شَهْرُ رَمضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلقُرْآنُ هُدَىً لِلنَّاس ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَىٰ وَالفُرْقَان ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ ٱلعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا ٱلعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] .

وظن بعض المسلمين أن الصيام في رمضان ، امتناع عن الطعام والشراب ، فقال لهم النبي عليه السلام : « ليس الصيام من الاكل والشرب انما الصيام من اللغو والرفث ، فإن سابّك أَحَدٌ ، أو جهل عليك فقل : إني صائم . . . إني صائم » .

وهكذا وضع النبي ، الصائمين على حدودٍ اخلاقيةٍ مثالية .

ثم قال النبي ﷺ « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » وقال : « قد جاءكم شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تُفتح فيه أبوابُ الجنة ، وتُغلق أبواب الجحيم ، وَتُغَلُّ فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرم خيرَها فقد حُرم » وقال : « وينادي فيه ملَك : يا باغي الخير أبشِرْ ، ويا باغي الشرّ أقصرْ ، حتى ينقضي رمضان » .

وبهذا وضع النبي الصائمين ، فوق رحاب تعبّدية مطلقة .

وسنَّ النبي سنة صلاة التراويح بعد عِشاء كل ليلة ، فأقبل الناس على المساجد ، يؤدّون الصلاة ، ويتدارسون القرآن ، ويتلاقون في ظل المسجد ، فيتذاكرون ويتوادّون ويتزاورون ويتفقدون بعضهم بعضاً .

وبهذا وضع النبي الصائمين على صعيد اجتماعي رفيع .

(١ و ٢) سورة البقرة الآيات ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ .

ومع تطاول العهد ومرور الزمن ، نمت هذه المعاني التعبّدية والخلقية والاجتماعية ، في بلاد العالم الاسلامي نمواً كبيراً ، وأصبح لها في كل بلد تقليد ، وعند كل شعب هالة ، ولدى كل حكومة قدسية واحترام .

ورأت حكومات الدول الاسلامية المتتابعة ، أن تستقبل رمضان استقبالا حافلاً ، ينمّ عن أكرم ترحيب ، وكان التعبير عن الترحيب الكريم - ولا يزال - باطلاق المدافع عند قدومه وعند انتهائه ، فأعطىٰ هذا لرمضان في يوم حِلّه ويوم تَرْحاله ، تعبيراً عن أفخم استقبال وأكرم توديع .

وأعطت الحكومات الاسلامية هالة الاحترام والتقدير لرمضان ، فراحت تُغلق في هذا الشهر ، دور اللهو المحرم ، وأماكن العبث الضارّ[1] ، لكي تعين المسلمين على الإبتعاد عن المعاصي والآثام .

ومعظم المسلمين يتجاوبون مع هذه المعاني التعبّدية والخلقية خلال هذا الشهر الكريم ، حتى الذين تعودوا على الفسق واجتراح المعاصي وشرب الخمور ، طيلة أيام السنة ، تراهم يعودون الى ربّهم في هذا الشهر ، فيقلعون عن المعاصي ، ويتركون شرب الخمرة ، ويقبلون على المساجد ، عابدين تائبين ، فتغُصّ المساجد على رحبها بصفوف المصلين ، وحلقات الذكر ، وقرّاء القرآن ودروس الوعظ والإرشاد .

وتعوّد الناس على تسمية هؤلاء التائبين بأنهم (زبائن رمضان) ذلك لأن قسماً كبيراً منهم ، يعود الى سابق عهده بعد انتهاء رمضان فيزاول ما اعتاد مزاولته بقية شهور السنة .

ولقد عبّر أمير الشعراء أحمد شوقي عن هذا الواقع بقصيدة مطولة قال فيها عن الخمرة :

رمضان ولّى هاتها يا ساقي ... مشتاقةً تسعى الى مُشتاقِ

(١) مع أن الواجب ان لا يكون شيء منها في بلاد تؤمن بالله .

الله غفـــار الذنـــوب جميعهـــا إن كان ثَـم مـن الذّنـوب بَـواقِ
بالأمس قد كنـا سجينيْ طـاعـةٍ واليـوم مَـنّ العيـد بـالإطلاقِ
ضحكت اليَّ مـن السرور ولم تـزل بنـتُ الكـروم كـريمةَ الأعـراقِ
هات اسقنيها غير ذاتِ عـواقـبٍ حتى نُراع لصيحـةِ الصفّـاق[1].

ومع تميّز رمضان، بالهالات التعبديـة والخلقيـة، رأينـاه يتميـز في وقتنـا الحاضر بالهالات الاجتماعية الكثيرة، فالتزاور، خلال ليالي رمضان، وتبادل حفلات الافطار واقامة المآدب الشهية، لا يهدأ ولا يفتر، فلا ترى بين الاسر الاسلامية، أسرة واحدة، الا وهي في هذا الشهر داعيةٌ أو مدعوّة، زائرةٌ أو مزارة، بل أن برنامج الملك أو الرئيس أو الوزير نراه حافلاً في رمضان، وموائده عامرة بأطايب المأكولات والمشروبات، لحفلات الافطار، التي لا تكون قاصرة على العلماء والكبراء ورجال الدين وأعيان المجتمع، بل انها تشمل الفقراء والمعوزين الذين تقام لهم المآدب الخاصة، والاحتفالات الحلوة.

وفي رمضان يوسّع الناس على بعضهم بعضاً، كما يوسّعون على أسرهم وعيالهم وفقرائهم فتبدو في هذا الشهر معاني التعاطف والتوادّ، وصِلة الرّحمِ، بين أعضاء المجتمع الاسلامي، كأبهى ما يكون التعاطف والودّ.

ورمضان لا يكون موسماً تعبدياً وخلقياً واجتماعياً فحسب، بل هو أيضاً موسم اقتصادي، تنشط فيه أسـواق البيـع والشراء، أكلاً وشُـراباً وغذاءاً وكساءاً.

فهناك أشربة خاصة برمضان، كالقمـر الدّيـن، الذي يصنـع مـن عصير المشمش المصفّى المجفف، وهناك الحلويات المختصة برمضان (كـالغُـرَيْبَـة والمعمول وكلاّج القشطة)[2] وغير ذلك، والقُلُـوبـات التي يسميهـا البعـض

(١) الصفاق: الدّيك لانه يصفق بجناحيه ويصيح عند الفجر.

(٢) هذا في الشام، وفي الحجاز السمبوسك باللحم أو الجوز، والرقاق، والمشبك، واللقيمات وغيرها، وفي مصر والعراق والمغرب أنواع أخرى.

(المكسّرات). أي الفستق والجوز واللوز والبندق حيث يستهلك الناس منها في رمضان أضعاف ما يستهلكونه في السنة كلها.

ولما كان عيد الفطر الذي يسميه البعض: (عيد رمضان) يأتي عقب انتهاء شهر الصوم، أي في اليوم الأول من شهر شوال، فانه جرت العادة على شراء ملابس العيد للكبار والصغار، وتحضيرها وتخييطها خلال شهر رمضان ولهذا تعارف الناس على توزيع أعشار رمضان الى ثلاثة أقسام فقالوا في أمثالهم العاميّة: (أول عشر مَرَق، وثاني عَشْر خِرق، وثالث عشر بُـرَك) أي أن اهتمام الناس في العشر الأول من رمضان ينصبّ على تنويع مآدب الافطار، فيكثر فيها المرق الشهيّ والحساء المنوع، وينصبّ في العشر الثاني على الخِـرق أي على تحضير الملابس وتخييطها ابتهاجاً بقـدوم العيـد المنتظـر، وينصـبّ في العشر الثالث على (البُرك) لأن الناس يتهيّأون لصنع المعجنّات والحلويات التي كانوا يصنعونها بأيديهم وفي بيوتهم فلا يجلبونها جاهزة من الأسواق ـ كما هو الحال اليوم ـ الا في الاحوال النادرة.

ولا ننسى ما يتميّز به رمضان من سُنّة السحور في جوف الليل، وحتى طلوع الفجر، وما يرافقها من قيام المسحّر، أو «المسحرّاتي» الذي يطوف على البيوت بطبلته التي تغازل هدوء الليل برّقة، وبأناشيده العاميّة التي تغزو مسامع الناس بعذوبة، فيوقظهم الى سحورهم بحبٍ وحنان وحثّ على توحيد الله. الا أن عادة المسحراتي قد بدأت بالانقراض، بعد انتشـار السـاعـات (المنبهـة) وظهور الاذاعة، وقيام المذياع بهذه المهمة.

وهكذا ينتهي رمضان، وينتهي معه شهر طـاعـات وعبـادات وفضـائـل اخلاقية واجتماعية يعود معها الانسـان الى انسـانيتـه ويتطلـع فيهـا إلى ربـه ومعتقده، من خلال ذاته ونفسه ومجتمعه، ولقد أحسن الحسن البصري[1]

(١) الحسن البصري هو ابو سعيد الحسن بن يسار ولد عام ٢١ للهجرة وتوفي عام ١١٠، وهو=

وأجاد رحمه الله حين رأى اقبال الناس على رمضان فحدّث وقال:

جعل الله رمضان مضماراً لخلقه. يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلّف آخرون فخابوا، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون، اما والله لو كشف الغطاء لشُغل محسن باحسانه ومسيء باساءته.

ونظر رحمه الله الى قوم منصرفين من صلاة عيد الفطر، يتدافعون ويتضاحكون فقال: الله المستعان..!! إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم ان صومهم قد تُقبّل فما هذا حال الشاكرين. وإن علموا انه لم يُقبل فما هذا حال الخائبين!

وهناك الكثير مما يقال عن «رمضان في المجتمع الاسلامي» إلاّ ان في هذا الكفاية حسبما نظن، انسجاماً مع نهج هذا الكتاب.

= تابعي كبير، كان إمام أهل البصرة وحبر الامة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النسّاك، ولد بالمدينة وشبّ في كنف علي بن ابي طالب رضي الله عنه، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية: وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم، قال الغزالي: كان الحسن البصري اشبه الناس كلاماً بكلام الانبياء، واقربهم هدياً من الصحابة، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف، وقد سلم من اذاه، ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: «اني قد ابتليت بهذا الامر فانظر لي اعواناً يعينونني عليه» فأجابه الحسن: اما ابناء الدنيا فلا تريدهم وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك فاستعنْ بالله. «الاعلام لخير الدين الزركلي ج ٢ ص ٢٤٢».

الأدب الاجتماعي... عند الإمام الغزالي

لئن كان الامام الغزالي فيلسوفاً متكلماً، صال وجال في كل ميدان من ميادين الفلسفة، التي طرقها فلاسفة الشرق والغرب. فانه قد كان أيضاً، عالماً فقيهاً، وصوفياً مؤمناً، ومصلحاً اجتماعياً، وصاحب رسالة روحيّة، كان لها أثرٌ كبير في الحياة الاسلامية العامة، حيث ما زالت كتبه وأفكاره، تدّرس حتى الآن في مختلف الجامعات العربية والاسلامية والأجنبية، فهو بحقٍّ، كان منارة علم وأدب وفلسفة شهدها القرن الحادي عشر الميلادي، من عمره الذي لم يزد عن اثنين وخمسين عاماً [١].

لقد كانت له أقوال ورسائل وكتب، جمع فيها بين الأدب والدين، ودعا بها إلى مكارم الأخلاق، وحثَّ على الفضائل الاجتماعية والانسانية، بأسلوب العالم الواعي، والكاتب المفكّر القادر.

يقول الامام الغزالي: «ان أكمل الأخلاق وأعلاها، وأحسن الأفعال وأبهاها، هو الأدب في الدّين، وما يقتدي به المؤمن من فِعل ربّ العالمين».

ولم يترك الامام الغزالي كلامه، عنواناً بدون متون، أو كلاماً بدون توضيح، بل تحدث عن كل ما له صلةٌ بحياة الانسان، حياته مع نفسه، حياته مع ربّه، حياته مع دينه، حياته مع مجتمعه، حياته مع أهله وزوجه وولده.

---

(١) وفي آخر عمره اتجه لعلم الحديث النبوي. وتوفي و«صحيح البخاري» على صدره، وذلك بعد أن لُفت نظره للأحاديث الضعيفة في كتبه مثل «إحياء علوم الدين» وكان ـ رحمه الله ـ رجاعاً للحق، متواضعاً زاهداً متعبداً.

فاذا تحدث عن أدب المؤمن بين يدي الله تعالى قال: إن أدب المؤمن اطراق الطّرف، وجمعُ الهمّ، وسكونُ الجوارح، وامتثالُ الأوامر، واجتنابُ المناهي، وحسنُ الخُلُق: ودوامُ الذّكر، وسكونُ القلب، وتعظيمُ الرَّبِ، وايثارُ الحقّ.

واذا تحدث عن أدب الرجل مع زوجته، قال: عليه حُسن العشرة، ولطافة الكلمة، واظهارُ المودّة، والبسطُ في الخلوة، والتغافلُ عن الزلّة، وقِلّة المجادلة، وبذلُ المئونة بلا بخل، واكرام أهلها، ودوام الوعد بالجميل، وشدّة الغيرة عليها.

وأما آداب المرأة مع زوجها، فدوام الحياء منه، وقلّة المماراة له، وحسن الاستماع لكلامه، والحفظ له في غيبته، وترك الخيانة في ماله، واظهار القناعة، واستعمال الشفقة، ودوام الزينة، واكرام أهله وقرابته، ورؤية حاله بالفضل، وقبولُ فعله بالشّكر، واظهار الحب له عند القرب منه، وابداء السرور عند الرؤية له.

ومن آداب الوالد مع أولاده، ان يعينهم على برّه، ولا يكلّفهم من البر فوق طاقتهم، ولا يلّح عليهم في وقت ضجرهم، ولا يمنعهم من طاعة ربه، ولا يمنّ عليهم بتربيته.

وللولد آداب عند والديه: يسمع كلامهما، ويقوم لقيامهما، ويمتثل لأوامرهما، ويلبّي دعوتهما، ويخفضُ لهما جناح الذلّ من الرحمة، ولا يبرمهما بالالحاح، ولا يمنّ عليهما بالبرّ لهما، ولا بالقيام بأمرهما، ولا ينظر اليهما شزراً ولا يعصي لهما أمراً.

وللجار على الجار حقوق، قال فيها الامام الغزالي ان الجار يبتدىء جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عليه السؤال، يعوده في مرضه، ويعزّيه عند مصيبته، ويهنّئه عند فرحه، ويتلطّف لولده، ويصفح عن زلته،

ويعاتبه برفق عند هفوته، ويغضّ عن حرمته، ويعينه عند استغاثته، ولا يديم النظر الى خادمته.

وللسلطان أيضاً، آدابٌ مع رعيته، منها استعمال الرفق، وترك التعنيف، ومنها الفكر قبل الأمر، وترك التكبر على الخاصة، وحسن التودّد الى العامة، مع مزج الرهبة لهم، واستعمال المروءة مع أهل العلم، والتوسعة عليهم، مع الرفق في الجناية، ودوام الحماية.

وأما آداب الرعية مع السلطان، فقلّة الغشيان لبابه وترك الاستعانة به الا بشيء يلزم أمره، ودوام الهيبة له، وان كان ذا رفق، وترك الجرأة عليه وان كان ذا لين، وقلّة السؤال وان كان مجيباً، والدعاء له اذا ظهر.

واذا أتاك صديق بهدية، فينصحك الغزالي باظهار السرور بها وان قلّت، والدعاء لصاحبها اذا غاب، والبشاشة اذا حضر، والمكافأة عند القدرة، والثناء عليه ان أمكن، وترك الخضوع له، والتحفظ من ذهاب الدين معه، ونفي الطمع.

وأما المُهدي، فانَّ عليه كما يقول الغزالي، ان يرى الفضل للمهدى اليه، وان يظهر السرور بقبوله لها، وان يشكر المهدى اليه، وأن يستقلّ هديته، وان كثرت.

وتحدث الامام الغزالي، عن آداب الغني وآداب الفقير، فعلى الغنيّ نفي التكبر، ودوام الشكر، والتوصل الى اعمال البر، والبشاشة بالفقير، والاقبال عليه، وردّ السلام على كلّ أحد، مع لطافة الكلمة وطيب المؤانسة، والمساعدة على الخيرات.

وأما الفقير، فعليه لزوم القناعة، وكتمان الفاقة، وترك الامتهان، واتقاء الطمع، وايثار الصيانة، واظهار الكفاية لأهل المروءة، واجلال الاغنياء، وترك الكبر عليهم، مع نفي التذلل، والتمسك بالدين عند مشاهدتهم.

ورحم الله الامام الغزالي، فانه لم يترك بابا من أبواب الآداب في المجتمع الا وطرقه بتواضع، وحثّ عليه بايمان، وزيّنه بخير مكارم الأخلاق، فقد كان قطبَ فلسفةٍ وعلم، ورجل تقوى ودين، وداعيةَ خيرٍ واصلاح، كان الخُلُق سوقاً لبضاعته، وحسنُ البيان سبيلا لنشر معارفه.

استقصاء طريف حول الأسماء والألقاب

هل خطر ببالك، أو جال في ذهنك ـ أيها القارىء الكريم ـ أن تقوم بعملية استقصاء او استيضاح أو تفسير، لأمر من الأمور، قد يبدو عادياً لا شأن له، أو غير جدير بأي اهتمام؟!

انا، خطر لي أمر من هذه الامور، وجال في ذهني أن أستقصيه وأتتبعه، وتوقعت أن يكون طريفاً ومفيداً في آن واحد.

قلت: ما هو سرّ الاسماء والكنى والألقاب؟

قد يقول قائل: ليس هناك أسرار، فالأسماء، ألفاظ عابرة «لا تعليل لها»، تعارف عليها البشر بعد أن علمها الله لآدم، منذ بدء الخليقة، ليعرفوا من خلالها بعضهم بعضاً، وهي كاختلاف الالسنة، والاجناس والألوان، وكتباين العادات والاخلاق، لدى أمم وشعوب، بعضها فرضته الحاجة، وبعضها سببته البيئة، وبعضها استوجبه التطور والنموّ.

والذي يعنيني الآن هو الحديث عن: الأسماء، والكنى، والألقاب.

فالاسم في اللغة: هو «العلامة»، وهو تنويه ورفعة، وهو رمز بالاسماء للمسميات ولولا اختلاف الاسماء بين البشر، لما استطاع الانسان أن يتميز عن بقية الخلق، ولما استطاع المرء أن يفرق بين انسان وآخر، أو بين شيء وآخر.

الكنية: هي ما يكنى به مجازاً عن الاسم كأن يقال: «أبو فلان» وهو يعني فلاناً، أي أن يكون اسمه ـ مثلا «أحمد»، وتكون كنيته «أبا الحسن».

واللقب: هو مايدل عليه من صنعة أو صفة أو علامة يلقب بها الانسان ومن هنا يكون انتساب المرء لعائلته، لقباً، غير اسمه وكنيته.

ولكن كيف نمت وتطورت أسماؤنا وكنانا وألقابنا؟

يبدو أن أعداد البشر كانت تتكاثر ـ بالطبع ـ في بطء شديد لأن الخليقة البشرية، بدأت في اعتقادنا، بآدم ثم بحواء، ومنهما بدأ النسل والتكاثر، فكان مفروضاً مع هذا البدء أن يكون لكل بشر اسم يعرف به، وحين ازداد عدد البشر، وتشابهت الأسماء، كان لا بد من اضافة اسم الأب إلى الابن، للتمييز بين شخصين واسمين أو أكثر، فصار يقال «فلان بن فلان» وبعد ذلك أضيف اسم الجدّ، فصار يقال: «فلان بن فلان بن فلان» واستمرّ الحال على اضافة اسماء الآباء والأجداد، حتى أصبح بامكان كل فرد أن يجعل اسمه سلسلة أسماء لا عدّ لها ولا حصر، ومنها نشأ ـ عند العرب خاصة ـ علم اسمه: «علم الانساب» وأصبح هنالك نسّابون موثوقون، يحفظون ويروون، ويميزون الشخص الواحد عن غيره، لا بالنسبة لاسمه أو اسم عائلته أو قبيلته أو عشيرته فحسب، بل بالنسبة أيضاً الى أصالته في النسب حيث أن اختلاف الامهات بين الأخ وأخيه، قد يجعل بينهما شأواً بعيداً في قواعد ومراتب كفاءة الانساب.

الى هنا، والموضوع عادي لا طرافة فيه، غير أن الطريف، هو لفت الانتباه، الى عائلات وأسر قد أصبح لها كنى أو ألقاب تلتزم بها التزاماً صحيحاً، دون أن تعرف في أكثر الاحيان سبب هذا الالتزام أو دواعيه أو موجباته.

نقول على سبيل المثال: أن عائلات كثيرة قد جاءت ألقابها عن طريق الألوان، فنعرف مثلا أن في بلادنا عائلات قد احتكرت لنفسها أسماء الألوان فجعلتها ألقاباً لها دون أن يعرف أكثر أفراد كل أسرة، سبب اختيار لقبهم.

ففي سورية مثلا، عائلة «الابيض»، وعائلة «الأزرق»، و«الاسود» و«الاصفر» و«الاحمر» و«الأخضر» و«الذهبي» و«البنّي» و«السماوي» وأنا شخصياً لي أصدقاء ومعارف كثيرون من سائر هذه الأسر، ولم أجد واحداً منهم، استطاع ان يعطيني نبأً صحيحاً عن سر انتماء أسرته الى هذا «اللون» المعيّن.

على أن هناك ألقاباً، تدلّ بطبيعتها، على أن جدّ الأسرة كان صاحب مهنة محددة، ولهذا سرى اسم مهنته على أبنائه وأحفاده، فنشأت عندنا ـ وعند غيرنا بالطبع ـ عائلات تتألف ألقابها من نوعية المهنة التي مارسها الجدّ، أو الأب، فكان عندناعائلة «الحداد» و«النجار» و«الدهان» و«الكلاّس» و«البنّاء» و«الصيرفي» و«العطار» و«السكرّي» و«الحفار» و«النقاش» و«المزيّن» و«الطرابيشي» و«الخياط» و«التاجر» و«العلبي» ـ صانع العلب ـ و«الغراوي» ـ صانع الغراء ـ و«الحائك» و«الصواف» و«القطّان» و«الحريري» و«الكتاني» و«الشمّاع» ـ صانع الشموع ـ و«الخضري» و«الطحان» و«العلاّف» و«الفاكهاني» و«الشربجي» ـ بائع الشراب مع النسبة التركية للصنعة ـ و«الشرابي والشراباتي» نسبة الى الشراب أيضاً، و«الحبّال» و«اللحام» و«الحلواني» و«الصائغ» و«البستاني» و«الحمّامي»، وغير ذلك من أسماء المهن، التي صارت ألقاباً لعائلات كثيرة وكبيرة.

وهناك ألقاب، قد جاءت نتيجة صفة خَلْقية محددة، فالتزم بها الابناء والاحفاد، وأصبح عندنا بيت «الأطرش» و«الأعور» و«الأكتع» و«الاخرس» و«الاعرج» و«الاعمى» و«الاحدب» و«الاقرع» و«الاعسر» و«الطويل» و«القصير» وغير ذلك.

وأما العائلات التي جاءت ألقابها من المدن والقرى والاقطار فحدّث عنها ولا حرج، لأن هناك عائلات «الدمشقي» و«الحلبي» و«الشامي» و«الحمصي» و«الحموي» و«الدّيري» و«اللاذقي» و«البيروتي»

و« الطـرابلسي » و« الصيـداوي » و« البغـدادي » و« الموصلي » و« النجفـي » و« البصراوي » و« الصحـراوي » و« المكـاوي » و« المدني » و« القـدسي » و« النابلسي » و« العكـاوي » و« الاسكنـدراني » و« الطنطاوي » .

اضافة الى عائلات « السوري » و« العراقي » و« المغـربي » و« الجزائـري » و« المصري » و« التونسي » و« اليمني » و« الحجازي » و« النجدي » وما أشبه ذلك .

وحتى بعض الاطعمة كان لها نصيب من الالقاب ، فهناك ، بيت « الكوسا » و« الرز » و« البرغل » و« الدبس » و« دبس وزيت » و« سكّر » و« الحامض » و« الحلو » و« المالح » و« الكبّي » و« الدهنة » و« الهبرا » و« العظم » .

كذلك كان لمخلوقات اخرى نصيب من ألقـاب الانسـان ، فهنـاك بيـت « العصفور » و« الشحرور » و« الزرزور » و« الديك » و« الجاجة » و« الصوص » و« البيضة » ،

هـذا عـدا عـن آل « العـريـان » و« الحافي » و« البردان » و« الغضبـان » و« الراضي » و« العادل » و« المظلوم » وغير ذلك .

وبعض الأسر جاءت ألقابها نتيجة انتمائها إلى الأئمة المجتهدين الكبار ، فكـان عنـدنـا بيـت « الحنبلي » و« المالكـي » و« الشـافعـي » و« الحنفـي » و« الظاهري » و« الرفاعي » و« القادري » .

كما جاءت ألقاب أسر أخرى ، نتيجة الانتماء الى صفة علمية أو دينيـة أو سياسية ، فكان عندنا عائلات « الشيخ » و« الخوري » و« العالم » و« الاستاذ » و« الخطيب » و« الامام » و« المدرّس » و« القاضي » و« القسيس » و« النائـب » و« الوزيـر » و« الرئيس » و« السلطـان » و« الشـاويش » و« الجنـدي » و« العسكري » .

وهناك عائلات انتسبت الى اسم جدها الأول كآل « البكري » نسبة الى أبي بكر الصديق ، وآل « العمـري » نسبـة الى عمـر بن الخطـاب ، وآل « الحسني

والحسيني » نسبة الى الحسن والحسين ، سبطي النبي العربي عليه الصلاة والسلام ، وآل « الهاشمي » نسبة الى هاشم بن عبد المطلب ، وآل « الزبيري » نسبة الى الزبير بن العـوام ، وآل « العـوف » نسبـة الى عبـد الرحمن بن عـوف ، وآل « الحمزاوي » نسبة إلى الحمزة بن عبد المطلب وغير ذلك .

وأما بالنسبة للكنى ، فقد جرت عادات العرب منذ القديم ، على أن يكنوا بعضهم بعضا بأسماء أبنائهم ، فيقال أبو القاسم ، وأبو عبد الله ، وأبو الحسن وأبو هشام وأبو سفيان وأبو مروان وما أشبه ذلك ، على أن بعض الناس اختاروا أن يجعلوا من أسماء أبنائهم كنى تفاؤل واستبشار ، فسموا أبناءهم بالكنى بدل الاسماء فكان « أبو الخير » و« أبو السعود » و« أبو الفرج » وأبو اليمن » و« أبو الفضـل » و« أبـو المكـارم » الى آخـر صفـات البشر واليمـن والكرم .

وبينهم من اختار لقب الشجاعة والفروسية وما أشبه ذلك فكان « أبو شجاع » و« أبو فراس » و« أبو صيّاح » و« أبو سطّام » و« أبو داغر » و« أبو فهد » وغير ذلك .

أخيراً وليس آخراً ، أقول : هذا شيء من الاستقصاء ، وهو ليس باحصاء ، ولكنه شيء طريف ، قد يكون من أدق مافيه انني لم أذكر كنية أو اسماً أو لقباً ، الا واعرف ناساً من ناسه . ولو واحداً على الأقل ، بمعنى أن هذه الاسماء والكنى والالقاب موجودة في عصرنا الحاضر ، وهي كلهـا تـؤلـف عـائلات محترمة وأسراً معروفة ، يحتل أبناؤها مراكز ومناصب علمية أو سياسية أو ادارية أو اقتصادية أو اجتماعية مختلفة ، وما أدري إن كنت قد امتعت القارىء بهذا الموضوع الاستقصائي الذي جال في ذهني ، ولعله جال كثيراً في أذهان آخرين .

ثم لا ننسى أن في ادبنا العـربي طـرائـف كثيرة تتعلـق بـالاسماء والكنـى والألقاب ، وكثيرون هم الشعراء الذين غلبت عليهم ألقابهم أو كناهم فلم

يعودوا يُعرفون بأسمائهم إلا نادراً، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، أبو الطيب المتنبي الذي كان له قصة مع لقبه وكنيته نسي معظم الناس معها اسمه.

هذه القصة تتلخص في أن أبا الطيب الذي سحر الناس بشعره الحكيم، وأمثاله السائرة، وحكمه البالغة، ومعانيه المبتكرة، قد أعجب بنفسه وناله الكثير من الغرور والاعتزاز، فخطر له أن يدّعي النبوة وان يزعم بشعره انه رسول من رب العالمين، فأعلن عن ذلك في بادية السماوة وهو في طريقه بين الكوفة والشام فانخدع به بعض الناس، وآمن به كثيرون، وقبل أن يستفحل امره، خرج إليه «لؤلؤ» «أمير حمص ونائب الاخشيد» فأسره وسجنه، ثم استتابه فتاب، ورجع عن دعواه، وراح يتابع مسيرته الشعرية إلا أنَّ اسمه منذ ذلك اليوم قد أصبح «المتنبيء» بالاضافة الى كنيته وهي «أبو الطيب» ونسي الناس اسمه الأصلي وهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي الذي ولد بالكوفة عام ٣٠٣ للهجرة وقتل عام ٣٥٤ هـ في موقع يدعى «النعمانية» بالقرب من دير العاقول (في الجانب الغربي من سواد بغداد) على يد فاتك ابن أبي جهل الأسدي كما قتل معه ابنه محسد وغلامه مفلح.

ومن هؤلاء أيضاً شاعر شريف اسلامي برز في عهد بني أمية وكان سيداً من سادات قومه وعُرف باسم «مسكين الدارمي» وكان هذا الاسم في حقيقته لقباً غلب عليه، بسبب بيتين من الشعر قالهما وهما:

أنـــا مسكينٌ لمن أنكـــرني ... وَلِمَـــن يعـــرفُني جِـــدٌّ نَطِـــقْ
لا أبيـع النـــاس عـــرضِـــي إنّني ... لـو أبيـع النّـاسَ عِـرضي لَنَفَـقْ

ومن يومها غلب عليه لقب «مسكين» فأصبح لا يعرف إلا بهذا اللقب وأما اسمه فهو ربيعة بن عامر يصل نسبه إلى دارم بن مالك، ولهذا يقال: «مسكين الدارمي».

ومنهم «الفرزدق» وهو اللقب الذي غلب على أحد شعراء الطبقة الاولى من الشعراء الاسلاميين وكان اسمه «همام بن غالب» وكنيته «أبا فراس»

وينتهي نسبه إلى زيد بن مناة. لا يعرفه الناس إلا باسم «الفرزدق». ذلك لأن وجهه كان يشبه «الفَرَزْدَق» وهو الرغيف الذي يسقط في التنور أو فتات الخبز، أو قطع العجين والواحدة (فَرَزْدقَة). ومن شدة علوّ كعبه في الشعر كان يقول بعضهم «لولا الفرزدق لذهب شعر العرب».

ومنهم «المقنَّع الكِنْديّ» وهو شاعر مقلٌّ من شعراء الاسلام في عهد بني أمية، وكان له محل وشرف ومروءة وسؤدد في عشيرته. ولقد جاءه هذا اللقب لأنه كان أجمل الناس وجهاً، وكان إذا حسر اللثام عن وجهه اصابته العين ولحقه عنت (!!!) فكان لا يمشي الاّ مقنّعاً. وأما اسمه الاصلي فهو محمد بن ظفر بن عمير، ينتهي نسبة إلى كندة بن غفير، والمقنَّع الكندي هو القائل:

وإنَّ الذي بيني وبينَ بني أبي ... وبينَ بني عمّـــي لمختلـــفٌ جِـدَّا
فان أكلوا لحمي وَفَـرْت لحومَهـمْ ... وإن هَدمُوا مَجدي بنيـتُ لهمْ مجدَا
وإن ضَيَّعوا غيبي حفِظتُ غيوبَهُـمْ ... وإن همْ هـوَوْا هـويـتُ لهم رُشدَا
وإن زجروا طيراً بنحسٍ تَمـرُّ بي ... زَجَـرْت لهمْ طيراً تمُرُّ بهم سَعْـدَا
ولا أحلُ الحقـدَ القـديمَ عليهـم ... وليسَ رئيسَ القوم من يحملُ الحقدَا
وإنّي لعبدُ الضَيـف مـا دام نـازلاً ... وما شيمةٌ لي غيرهـا تُشبـهُ العبـدَا

وهكذا غلبت الألقاب على الأسماء فكان الشاعر الفحل «ذو الرُّمة» أي «صاحب الحبل» لا يُعرف بأنه هو «غَيْلان بن عُقبة العدويّ» المتوفى عام ١١٧ للهجرة. وكان «الأخطل» أي «صاحب الاذنين الطويلتين المسترخيتين» لا يعرف بأنه هو الشاعر النصراني التغلبي الفذّ: «غِياث بن غوث ابن الصلت» الذي كان أول ثلاثة شعراء فحول عاصروا العهد الاموي في صدره. وهم الأخطل وجرير والفرزدق الذين احتلوا بشعرهم مكان الصدارة في قصور الخلفاء. وكانت «الخنساء» التي لُقِّبت بهذا اللقب لجمال عينيها لا تُعرف إلاّ نادراً بأنها هي «تُماضِر بنت عمرو بن الشّريد» صاحبة الشعر المتين والقافية الندية وهي التي كان لها قصص رائعة في الجاهلية والاسلام أهمّها قوة

صلابتها وشدة ايمانها حين فقدت أولادها الاربعة في حرب القادسية على عهد عمر بن الخطاب وكذلك لم يُعرف « النّابغة الذّبياني » الذي نادم الملك العربي النّعمان بن المنذر « الذي لُقّب بهذا اللقب لأنه نبغ بشعره وأكثر منه . بأنّ اسمه هو « زياد بن معاوية بن ضباب الذّبياني » الذي ينتهي نسبه إلى مضر . . . ولم يعرف « الأعشى » (وهو الأعمى أو الذي ساء بصره فلا يبصر في الليل) بأنه هو الشاعر الفحل الذي وصف الخمرة للخمرة لا للتفاخر بشربها . . . ووصف النديم والساقي والقينة وعودها . ونعني به « ميمون بن قيس بن جندل » وينتهي نسبه إلى بكر بن وائل بن ربيعة . وهناك الكثير الكثير ممن غلبت عليهم القابهم في تاريخنا العربي الاسلامي كله ، لا على صعيد الشعر فقط ، وليس المجال مجال حصر وعدّ ، بل هو مجال المثال والتذكير ، ولله في خلقه شؤون .

التفاؤل والتطيّر عند العرب ...

مرّ بن آدم ، عبرَ عصور الزمن ، وخلال مراحل التاريخ ، بأحقاب طويلة ، ودهور عديدة ، اشتملت على ملايين السنين ، واستوعبت مدارج النمو والتطور ، حتى جعلت من إنسان القرن العشرين ، رسول علم ، ومنارة فكر . وأسطورة عقلٍ ووحيٍ وإلهام !

لكنّ هذا الانسان ، ظلّ ـ شاء أم أبى ـ اسير عاداتٍ وربيب تقاليد ، لا يصده عنها وعيٌ ناضج ، ولا يزجره عنها فكر ثاقب ، يسير فيها سيراً أعمى ، مع علمه بأنه سير لا يقرّه العقل ، ويتهافت على ممارستها بشكلٍ عفويّ ، مع اقتناعه بأنها ضلالات وأوهام . . .

من هذا مثلاً ، موضوع التفاؤل والتطيّر ، إذ كثيراً ما نرى في زماننا هذا أناساً يتطيرون من أشياء ، كان أجدادنا يتطيرون منها قبل مئات السنين ، وكثيراً ما نرى في عصرنا هذا ، أناساً يتفاءلون بأشياء ، كانت هي نفسها قبل أكثر من ألف سنة ، سانحة بشرى أو اشارة تفاؤل !

نعرف في زماننا هذا ، أناساً كثيرين ، يتطيرون من الغراب ، ويتشاءمون من طير البوم . فاذا حطّ الغراب في ساحة دار من الدور ، ونعق بصوت أو صوتين . تشاءم أهل الدار وبادروه بمحاولة طرده ، إبعاداً لشؤمه ، وتخوّفاً من فعله . على أن فريقاً آخر من الناس يشكّ بشؤم الغراب كما يشكّ بفأله ، ولهذا يلوّح هؤلاء بأيديهم للغراب إذا وقف على شرفة دارهم . ويقولون له : « إن

كان ما تحمله شرّ... فخذه وانجرّ... وإن كان ما تحمله خير... فهاته وانزل...».

أما طائر البوم، فهو عند الجميع نذير شؤم ودليل خراب!

☆☆☆

قبل ألف وخمسمائة سنة، كان للغراب وللبوم، ولطيور أخرى عديدة كالرَّخَم، والصُّرَد والعقاب، والهدهد، والجراد، عند العرب القدامى، مثل ما لها عند عرب اليوم. كانت تطرف أعينهم لمرأى الغراب بسبب ما يحمله اسمه من معنى الغربة. وكان يروعهم سواده إن كان أسود، ويزعجهم لونه إن كان أبقع، ولقد اعتقد عنترة بن شداد، أن نعيب الغراب الأبقع، هو الذي أدى إلى رحيل أحبّته فقال:

ظعَـن الذيـن فـراقَهـم أتَـوقّـعُ
وجـرى ببينهـمُ الغـراب الأبقـعُ
إن الذيـن نَعَبْـتَ لي بفـراقهـم
هـم أسهـروا ليلي التّمامَ فـأوجعـوا

على أن الشاعر الجاهلي الآخر، علقمة الفحل، حذّر من زجر الغربان فقال:

ومـن تعـرّض للغـربـان يـزجـرهـا
على سلامتـه... لا بـدّ مشـؤومُ!

وارتاح قوم من طائر الصُّرد، وهو يشبه البوم ويغتذي بالعصافير وانزعجوا مما عسى أن يصيبهم من نقص في الأهل والمال فقال قائلهم

دعـا صُـرَدٌ يـومـاً على غصـن بـانـةٍ
وصـاح بـذات البين فيهـا غُـرابُهـا

فقلتُ أتصريـدٌ. وشَحـطٌ. وغـربـةٌ؟
فهـذا لعمـري نـأيُهـا واغترابها!

أما طائر الهدهد، فهو عندهم غرّة التفاؤل وآية اليمن، وبشير الهداية، ويقولون أن «القنزعة» التي على رأسه، هي ثواب من الله على ما كان من برّه بأمّه، لأن أمّه لما ماتت جعل قبرها على رأسه! وهم يتفاؤلون به لأنهم يؤمنون بأنه كان قد دلّ نبيّ الله سليمان على مواضع الماء في أعماق الأرض!

وكان بعض العرب يتشاءم من الجراد، لأنه مختلف الألوان، فهو عندهم كحوادث الزمان!

أما شعارهم. إذا ما استمعوا إلى ما يروعهم من الطير فهو قولهم: «طائر الله... لا طائرك...» والملاحظ عند العرب أن هذا النوع من الطير، الذي تحدثنا عنه كان موضع تشاؤمهم، ولهذا اشتقوا اسم «التطيّر» من اسم «الطير»!

☆☆☆

واذا كان بعض العرب اليوم، يلجأون إلى قارىء كف، أو ضارب ودع، أو كاشف فنجان. بغية الاطلاع على ما يخفيه لهم الزمن من ملامح التفاؤل أو التشاؤم... فان قدماء العرب كانوا يلجأون إلى ضاربات الحصى للتعرف على الغيب وكشف حجب المستقبل عن طريق ما يسمى بزجر الطير، حيث تضرب الضاربة طيراً بحصاة وتصيح به فيطير... فان أراها منه ميامنه فهو سانح، وإن أراها مياسره فهو بارح، واكثر العرب يتفاءلون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح[1]، وفي هذا يقول ذو الرُّمة:

(١) قال في «لسان العرب»: البارح ما مرّ من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطيّر به لأنّه لا يمكّنك من أن ترميه حتى تنحرف. والسّانح: ما مرّ بين يديك من جهة ياسرك إلى يمينك، والعرب تتيمّن به لأنه أمكنُ للرمي والصيد. وفي مثل: من لي بالسانح =

خليليَّ لا لاقيتما مـــــــــــــــا حييتما
مـــن الطير إلاّ الســـانحات وأسعـــدا

وقال المقنّع الكندي:

وإن زجروا طيراً بنحسٍ تمرُّ بي ـ زجرت لهم طيراً تمرّ بهم سعدا

وكان بعض العرب يتشاءمون من العطاس، وفي هذا قال امرؤ القيس:

وقـــد اغتـــدي قبـــل العُطـــاس بهيكـــلٍ
شـديـــدٍ منيـــع الجنـــبِ فعْـــمٍ المَنَطَّـــق!

ويعني الشاعر أنه كان يغتدي قبل أن يستيقظ الناس، لئلا يسمع عُطاسهم، فيخيب في مسعاه.

☆☆☆

وهكذا توارث العرب جيلاً عن جيل وساوس التطيّر وهواجس التفاؤل، يرونها بالطير والوحش والنبات. وبالأقوال والأفعال، وبطرفة العين، أو بطنين الاذن، وبأفعال الصبيان وباقوال الاطفال، فاذا حمل صبي شيئاً على رأسه ولو كان صينيّة صغيرة ونادى «لا إله إلا الله» زجروه وتشاءموا من ذلك وقالوا: هذا دليل وفاةٍ أو جنازة، وإن تفوّه طفل بكلمة مرغوبة محببة تفاءلوا بها وقالوا: «خذوا فألكم من أطفالكم» وإن كان عندهم مريض تشاءموا من عيادة من يعوده في يوم أربعاء، ولهذا تعارفوا على عدم زيارة مريض في مثل هذا اليوم من كل اسبوع، واذا طرفت عين المرأة أو الرجل، اعتقد أن خبراً مفرحاً سيصل إليه وفي هذا قال الشاعر العربي:

اذا اختلجـــت عيني تيقّنـــت أنني اراك وإن كـــان المزار بُعيـــدا

= بعد البارح؟ يُضرب للرجل يسيء إليه الرجل فيقال له: أنه سوف يُحسن إليك فيضرب هذا المثل (ويقول: من لي بالسانح بعد البارح)، وأصل هذا المثل أن رجلاً مرّت به ظباء بارحة، فقيل له: سوف تسنح لك، فقال: من لي بالسانح بعد البارح؟ إ هـ.

واذا سمع طنيناً داخلياً في اذنه اليسرى ظن أن عدواً يذكره بشرّ، أما إذا كان الطنين في أذنه اليمنى، فان محباً يذكره بخير، وكذلك تشاءموا من إدخال الصابون إلى الدار في يوم السبت، لأنه في زعمهم يجلب الفقر، ولقد غالى بعضهم بقصة الصابون فلا يتناولها براحة يده من شخص يحبّه، بل يتناولها بقفا الكف حرصاً على دوام محبته، أما إذا شعر بحاجبه يرعاه، فان عليه أن ينتظر قدوم ضيوف أو عودة مسافر.

ويمتنع كثير من النساء عن تفصيل الثياب والبدء بخياطتها في يوم الثلاثاء لأن هذا يجلب في زعمهم الفقر، ويحجمون عن غسلها يوم السبت للسبب نفسه أما الثياب والأحذية الجديدة، فيستحسن أن لا تلبسها المرأة أول مرة، إلا إذا كانت ذاهبة الى فرح، أو إلى نزهة، أو إلى زيارة، مرحة محببة، فان هذا ادعى الى استمرار الفرح والمرح في حياتها!!!

☆☆☆

وكانت المرأة العربية تتفاءل، أو تتشاءم من سفر زوجها، فاذا كان عزيزاً عليها، قبضت قبضة ترابٍ من مواطىء قدمه، واحتفظت بها، معتقدةً أن هذا اسرع لعودته، وفي هذا قالت امرأة شاعرة:

أخـذت تـرابـاً مـن مـواطـيء رجلـه
غـــداة غـــدا... حتى يـــؤوب مسلّماً!

وتعوّد بعض العرب أن يشق برقع زوجته، وأن تشق الزوجة رداءه، ظناً منهما أن هذا أضمن للحبّ وأوثق للقلوب، وعلّل هذا الصنيع سحيم بن معبد فقال:

نـــروم بهذا الفعـــل بُقيـــا على الهوى
وإلـــف الهوى يغـــري بهذي الوســـاوس

☆☆☆

وهكذا يظل الناس، على تمادي الازمان، واختلاف الأجناس والاوطان، ورغم تقدم العلوم وتطور العقول، اسرى عاداتٍ ومعتقدات وأوهام. لا يأتي عليها عدّ ولا يحصرها بيان. بل لا يتحرر منها جيل ولا يخلو منها مكان.

هذا وإن الفروق بعيدة عن ادّعاء كشف الغيب والاعتماد على التنجيم وكشف البخت. وبين التفاؤل والتطيّر، فالغيب من علم الله لا يعرفه انسان من البشر وكل من يدّعيه يكون كاذباً حتى ولو تصادف الصدق في بعض تنبؤآته. وأما التفاؤل والتطيّر ضمن حدود بسيطة ومعقولة فهو غير ضار وفي هذا يتداول الناس قولين مأثورين جليلين هما: «تفاءلوا بالخير تجدوه» و«كذب المنّجمون ولو صدقوا».

وروى الامام أحمد بن حنبل في مسنده عن أنس بن مالك انّ رسول الله ﷺ قال: «لا طيرة، ويعجبني الفأل. قال: والفأل الكلمة الحسنة الطيّبة».

وفي هذا أيضاً روى ابن حنبل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طيرة، وخيرها الفأل» قيل: يا رسول الله وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

وحدّث ابو معشر عن محمد بن قيس قال: سُئل ابو هريرة: سمعتَ من رسول الله ﷺ: الطيرة في ثلاث في المسكن والفرس والمرأة؟ قال: إذن أقول على رسول الله (ص)؟ يقول: «اصدق الطيرة الفأل والعين حق»[1].

وهكذا نرى أن الحق حق والباطل باطل، وليس الغلوّ مقبولاً بأي شيء، بل لا بدّ من الاعتدال في كل مسلك، وخير المسالك اعتماد طرق الحق وسلوك سبلُ الصواب.

---

(١) مسند الامام احمد «ج ٢ ص ٢٨٩» طبع المكتب الإسلامي.

التمائم والرّقى في جاهليّة العرب

ينمو فكرُ الانسان، ويزداد علمه، وتنتشر حضارته، وتسمو مداركه، لكنه يظل مشدوداً الى عادات موروثة، وتقاليد مبثوثة، لا يستطيع ان يتخلّى عنها، او ان ينفلت منها، بالرغم من فشله في التوفيق بينها، وبين ما آل اليه إنسان القرن العشرين، من نضج في الوعي، وسموّ في المعتقد.

من هذا ـ مثلاً ـ ما توارثه الانسان جيلاً عن جيل، من الاعتقاد بفوائد التمائم والرُّقى، والسعي وراء كشف البخت وقراءة الفنجان، والايمان بفعل السحر، وتمائم الحجب، والاعتقاد بفعل أطواق الحرز، المختلفة الاشكال والالوان، حتى ليدهشنا ان نرى علماء كباراً، واساتذة جامعيين، وسياسيين مرموقين من أمم مختلفة، وشعوب متباينة، يضعون عقولهم في جيوبهم، ويقذفون بعلومهم تحت اقدامهم ليذهبوا الى طبيب دجال، او ساحرٍ محتال، او مشعوذٍ أفّاك، يعطيهم الدواء العجيب او يكتب لهم الحجاب الغريب، او يكشف لهم عن مستقبل مزعوم، من خلال ضربٍ بالودع، او تأمل بالفنجان...

وليس هذا الضرب من الاعتقاد قاصراً على امة من الامم، اوشعب من الشعوب، فكل أمة لها من عاداتها الموروثة ومعتقداتها العجيبة، نصيب تتميز به عن غيرها من الامم، او تشاركها الايمان بما شاع من وهمٍ او معتقد.

ولقد كان لنا نحن العرب، سهم وافر من هذه الاوهام، توارثناها جيلاً عن جيل، منذ أيام الجاهلية الاولى، بحيث لم تستطع الاديان السماوية، ولا تقدم العلوم الكونية ان تقضي على جذور هذه المعتقدات او الاوهام قضاءاً مبرماً، فلا تزال آثارها باديةً للعيان، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من البيوت، اذ كثيرا ما يتحلّق افراد الاسرة الواحدة من الرجال والنساء حول ضاربة ودع،

او قارىء فنجان بعضهم يُرضي فضوله متفرجاً او متسلياً، وبعضهم الآخر يُرضي شعوره معتقداً او مؤمناً.

ويبدو ان الانسان العربي القديم قد استدل بعقله أو بفطرته، أو بفعل النبوات القديمة، على أن هنالك، إلهاً واحداً، هو فاطر السماوات والارض، لكن هذا الانسان القديم لم يستطع ان يجد الرباط المادي الذي يصله بهذا الاله العظيم، فراح يتخيّل الاله بفكره الساذج البريء، وراح يعبده متمثلاً صورته، يوما على هيئة كواكب السماء، من شمسٍ او قمرٍ او نجوم، ويوماً على هيئة ملائكة، ينحتها كأصنامٍ من الحجر او الشجر، بل ان بعض العرب (ومنهم بنو حنيفة) صنعوا إلههم من «الحيس»، والحيس طعام يصنع من التمر والسمن والسويق، فعبدوه امداً طويلا، ثم حلّت بهم مجاعة فأكلوه، حتى قال فيهم احد الشعراء:

أكلتْ حنيفةُ ربَّها ... زمن التقحّم والمجاعة
لم يحذروا من ربّهم ... سوءَ العواقب والتَّباعة

وحدّث ابو رجاء العطاردي، وقال: كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فاذا وجدنا حجراً أحسن منه، نلقي ذلك ونأخذه، فإن لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به «وهكذا كان العرب يستبدلون آلهتهم كلما وجدوا حجراً آنق من آخر، او أجل منه، فينكبُّون عليه ويتركون معبودهم القديم».

آخر ما عبده العرب من اصنامهم المصنوعة بايديهم ثلاثة هي اللاّت، والعزّى، ومَناةُ الثالثة الاخرى، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

من هنا نستطيع ان نستنتج بان الحجر الجميل، او ذا الالوان المختلفة كان له نوع من القداسة في النفوس، ولهذا ادّى اختيار الوثنية الى الاعتقاد بان في بعض انواع الحجر شيئاً من المآثر والاسرار، ومن هنا نشأت فكرة التمائم

والرقىٰ واستخدام اسرار الغيب. وفي كتاب «المرأة العربية» ـ (ج ١ ص ١٢٢ ـ ١٢٥) ـ بحث مطول عن «التمائم والرقى» نستخلص منه ما يلي:

وحيث أن بين ثنايا الجبال، او في حنايا المغاور والكهوف، قطعاً متناثرة من الصخر الذي شحذه قدم السنين، او صبغه وهج الشمس، او خطّطه تسكاب المطر، فجعل منه ألواناً جذابةً مختلفةً جميلةً، فقد تكرّس الاعتقاد بقداسة هذه الاحجار الصغيرة، التي كان منها خرز التمائم، وشارات الرُّقى، فصار لكل نوع من أنواعها عند العرب شأن في إصلاح أمر، أو جلب خير، أو دفع ضرّ، أضاف له اصحاب الصنعة، من ممتهني السحر او الشعوذة بعض الكلمات الخاصة زاعمين انها تستخرج من الحجر او الخرز، ما يطويه من سرّ، وما يمتاز به من قُدرة، وهكذا أصبح للتمائم والرقى شأن يذكر، وكان لكلٍ منها إسم وهيئة، وسرّ وغرض!

وقد يكون من الطرافة بمكان، أن نورد بعض ما حفظه تاريخ العرب القدماء، من «مآثر» الخرز والتمائم والاحجار الجميلة.

هناك خُرزة خاصة اسمها «الهِنَّمَة» وهي مختصة بتحبيب النساء الى ازواجهن فاذا ارادت المرأة ان تفوز بحب زوجها، حملت «الهِنَّمَة» وأخذت ترقيه بقولها: «اخذته بالهِنَّمَة، اخذته بالهِنَّمة، في الليل زوج، وفي النهار أَمَة»

وهناك خرزة شفافة اسمها «السُّلوانة» إذا دُفنت في الرمل اسوَدَّ لونُها فاذا أخرجت، سُحقت وصُبّ عليها ماء المطر، فإنْ شَرِبَها من ابتلي بحب انسان، سلا عمن احبه، ويسمى ماؤها «السُّلوان» وفي هذا قال الشاعر:

شربتُ على سلوانةٍ ماء مزنة ... فلا ـ وجديد العيش ـ يا ميَّ ما أسلو

وقال:

لو اشربُ السلوان ما سليت ... مالي غنى عنكم وإن غنيتُ

وقال:

يـــا ليـــت أنّ لقلبي مـــا يعلّلـــه او ساقياً فسقـاني عنـكِ سلـوانـا

وهناك خرزة لها لونان، سوداء في بياض، تسمَّى « الكَحْلَة » كانت تحملها النساء فتتحبب بها إلى الرجال، وتحفظ بها نفسها من بطش الانس والجان، كما تعلّقها على صدور الصبيان، فتحفظهم من أذى العين وشرور الانسان!

وهناك تميمة اسمها « الدَّردَبيس » وهي خرزة سوداء، يُشبه سوادُها لونَ الكبد، اذا رفعها الانسان واستشفها رآها تشف كلون العنبة الحمراء، كانت تتحبب بها المرأة الى زوجها، وفيها يقول القائل:

قطعـت القيـدَ والخَرَزات عنّـي فمـنْ لي مـن علاج الدردبيس

وهناك تميمة اسمها « اَلْيَنْجَلِبْ » تتخذها المرأة للرضا بعد الغضب، والاوبة بعد النّفار، فاذا حملتها المرأة قالت في رقيتها لزوجها: « اخَّذته باليَنْجَلِب فلا يرِمْ ولا يغِبْ، ولا يزلْ عند الطُّنُب ».

وهناك تميمة اسمها « الفطْسة » وهي خَرزة يُسقم بها العدوّ حتى يموت، وأمّا رقيتها فهي: « أخَّذته بالفسطة، بالثُّوبَا والعطْسة، فلا يَزل في تَعْسَة، من أمره ونَكْسَة، حتى يَزور رَمسَه ».

ومن رُقى النساء لتقريب القلوب قولُهن: « هوّابَة هوّابة، البرقُ والسّحابة، أخَّذتُه بِمْركَن، فحبُّه تمكَّنْ، أخَّذْتُه في إبرة فلا يزل في عَبْرة، أخَّذته بأشفى، فقلبه لا يَهدَا، جلبتُهُ بِمبْرَد فقلبُه لا يَبرُد ».

وكان العرب الاقدمون يعمدون الى الوليد، يخططون عليه بصمغ يستخرج من شجرة في البادية اسمها « السَّمُرَة » ويزعمون ان الجنَّ يرهبون هذا الصمغ، فإذا خَطَّطوا الوليد علّقوا عليه أيضاً سن ثعلب او هِرّة، وزعموا أن جنّية أرادت صبياً فلم تقدر عليه، فلما رجعت قيل لها في ذلك فقالت: « كانت عليه نُفَرَة، ثعالبُ وهِرَرَة، والحيضُ حيضُ السَّمُرَة ».

وقالوا ايضاً ان الجنّ تخشى كعبَ الارنب فلا تقرب من علّقها على نفسه، ومما ورد في التمائم والرقى، خَرزة اسمها « كَرار » كان نساء البادية يتقرّبن بها

الى الرجال، فاذا حملتها المرأة قالت: « يا كرارِ كُرّيه، يا هَمْره اهمريه، إن اقبلْ فسرّيه وان أدبرْ فضرّيه ».

وكان للعرب تمائم وخَرزات ورقى أخرى كثيرة، لا مجال لتعدادها، كما كان لهم شؤون غريبة تتعلق بالتفاؤل والتطيّر، وبالغربة والأوبة، وبكشف البخت، ومعرفة الغيب، وبأثر طير السعد وغراب البين وقد أوردنا شيئاً من ذلك في ثنايا هذا الكتاب، على ان الاسلام قد حارب ذلك حرباً عنيفة لاجتثاثها من أعماق النفس، حتى عدّ بعضُ فقهاء المسلمين، الاعتقاد بهذه الخرافات نوعاً من الشرك بالله، غير أن هذه الامور قد بقيت لها في نفس الانسان رواسبُ متوارثة لا عند العرب وحدهم[1]، بل عند جميع الامم والشعوب. هدانا الله[2].

---

(١) من العادات الشائعة في بعض القرى الاوروبية أن يد الطفل اليمنى يجب ان تترك بغير تنظيف حتى يتم العام الاول من عمره. كما ينبغي ان لا تقصّ اظافره خلال هذا العام بل يكتفي بأن تقضم بالأسنان (اسنان امه او ابيه). ومن العادات ايضاً انه اذا كسرت في البيت مرآة وجب ان تكسر مرآتان اخريان فوراً، كما ان النقود التي تقدم هدية فيجب ان يبصق عليها قبل اهدائها، ومن العادات العجيبة ايضاً ان الاحتفال بالزواج يجب ان يتم بثياب مستعارة فإن هذا حسب زعمهم يجلب الحظ للعروسين.

(٢) روى الامام احمد بن حنبل في مسنده عن انس قال: رخّص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من العين والحمّة والنّملة (مسند أحمد ج ٣ ص ١١٨) طبع المكتب الاسلامي.

وقال في « لسان العرب » في مادة نمل:

النّملة والنّمل قروح في الجنب وغيره ودواؤه ان يرقى بريق ابن المجوسي من اخته، وقيل: النّملة بَثْر يخرج بجسد الانسان. وقال الجوهري: النّمل بثور صغار مع ورم يسير ثم يتقرح فيسعى ويتسع ويسميها الاطباء الذّباب، وفي الحديث: لا رقية الا في ثلاث: النّملة والحُمّة والنفس. ا هـ « لسان العرب ج ١١ ص ٦٨٠ ».

وقال في « لسان العرب » في مادة حما:

عن ابن الاعرابي يقال لسمّ العقرب: الحُمّة والحُمَّة. وعن الجوهري: حُمّة العقرب سمّها وضرها، وحُمّة البرد شدته. وفي الحديث: انه رخّص في الرقية من الحُمّة وفي رواية: من كل ذي حمة « لسان العرب ج ١٤ ص ٢٠١ ». وكتاب أو معجم « لسان العرب » كما هو معلوم كتاب لغة، وليس كتاب شرع أو فقه أو حديث!!! =

طاولة الزهر
على مدى التاريخ

ينشأ الطفل في معظم بلاد الشرق، ليفتح عينيه على آلة من آلات التسلية، يراها منتشرةً في كل مكان، في بيته بين أهله وذويه، في المقاهي، بين الروّاد والزبائن، في المتنزّهات، على الشواطىء والضفاف، وبدون أن يشعر، يرى نفسه، قد اصبح واحداً من المولعين بها أو العارفين بطرائقها، فيزاولها بقدر ما يسمح له وقته، وقد يصير مدمناً عليها، إذا كان كثير أوقات الفراغ، ويا لسوء حظه في هذه الحال ـ إذا شبّ أو شاب ـ إن لم يجد الرفيق الذي يباريه بها، أو يشاركه في متعتها، لأن من خصائصها أن يتبارى بها شخصان، فلا يتمّ اللعب بها إلاّ إذا اشترك بها لاعبان.

هذه الآلة اسمها باللغة العربية (طاولة الزهر) وبالفارسية (شيش بيش) وباللاتينية (تريك تراك Tric Trac) وبالانكليزية (بكغامون Backgammon)، فما هي هذه الآلة؟ وكيف نشأت؟ وما هو تاريخها؟ وكيف تداولها البشر، في مختلف أنحاء الارض؟

تتألف طاولة الزهر في حجمها العادي من علبة مستطيلة يبلغ طولها ضعفي عرضها، ولا يزيد عمقها عن سبعة سنتمترات، وهي تفتح بشكل طولاني يجعلها نصفين متصلين، متساويين بالحجم والعمق، قد ارتسم في رأس كل نصفٍ ستُ علامات، وان شئتَ فقل ستة بيوت، على أنّ لاعبي الطاولة يسمونها ست (خانات).

يضاف الى ذلك، أنّ هنالك خمسة عشر حجراً بلونٍ أبيض وخمسة عشر

حجراً بلونٍ أسود، يضبطها حجم معيّن واحد، بحيث يأخذ كل حجر بيتاً من البيوت أو خانةً من الخانات، وذلك بشكلٍ يتسع فيه السطر الواحد من البيوت المتلاصقة، الى ستة أحجارٍ متجاورة.

وهناك ايضا مكعبان صغيران، يُصنعان من العظم أو من العاج أو من « البلاستيك » يظهر على الوجه الأول من كل مكعب نقطة سوداء، وعلى الثاني نقطتان، وعلى الثالث ثلاث، وعلى الرابع اربع، وعلى الخامس خمس وعلى السادس ست، بشرط أن تتألف نقاط كل وجهين متعاكسين من سبعة أرقام، بحيث يكون الواحد خلف الستة، ليصبح المجموع سبعة، وكذلك يكون الاثنان خلف الخمسة، والثلاثة خلف الاربعة، وهكذا..

فإذا بدأ اللعب بين المتباريين رمى أحدهما بهذين المكعبين، اللذين يسميان (الزّهر) أو (النّرد) في أرض الطاولة، ويكون له أن ينقل أحجاره البيض الى بيوتٍ يتناسب عددُها مع عدد أرقام الزهر التي تظهر على سطحه، ثم يكون الدّور للاّعب الآخر الذي يقذف بالزهر مرة أخرى، لينقل أحجاره السود بعدد البيوت التي تَحَدَّدَ رقمها على سطح الزّهر، وهكذا تجري المباراة، ويتعيّن الفائز بحسب نوعيّة اللعبة التي اختارها اللاّعبان، وهي أنواع كثيرة أشهرها ما يسمى بـ (الافرنجية) أو (المغربية) أو (المحبوسة)، ولكلٍ منها طرائق وأساليب ونتائج يعرفها المختصون والمزاولون.

لعبة طاولة الزهر وتسمى ايضاً (طاولة النرد) لعبةٌ قديمةٌ جداً، وقد تكون هي والشطرنج أقدم ما عرفه البشر من آلات التسلية.

تقول بعض كتب التاريخ إن (براهما) الذي تصوّره بعض المعتقدات الهندوكية على أنه الخالق الأزلي، ويصوّره بعضها الآخر، على أنه شبيه بآدم عليه السلام، أو أنه رسول الله الى البشر، أو أنه مَلِكُ البراهمة الذي هلك وأوصى بالملك من بعده لابنه، بل هو الذي أوحى لابنه الناهود بأن يصنع لعبة

النرد، وأن يجعلها مثالاً للكسب الذي يُنال بطريق الحظ والحذق، لا بطريق المكر والحيلة، مشيراً في ذلك الى أن الرزق لا يأتي بطريق الحذق وحده، وإن كان يأتي أحياناً بطريق الحظ وحده، على أن الكسب الوفير يأتي لمن كان حاذقاً ووفيرَ الحظوظ.

ويقول الهنود القدماء إن لعبة طاولة النرد تشير الى أمور عديدة نذكر منها ما يلي:

أولاً ـ ان تقلّب اللعبة، واختلافها من حالٍ الى حال وتنوع أشكالها بين كل لاعبَيْن، واختلاف نتائجها بين كل مباراةٍ ومباراة، دليل على تقلّب الدنيا بأهليها، واختلاف أمورهم فيما بينهم.

ثانياً ـ إن عدد أحجار اللاعبَيْن المتباريَنْ المؤلف من ثلاثين حجراً مأخوذ من عدد أيام الشهر.

ثالثاً ـ إن جعل بيوت (أو خانات) كلّ لاعبٍ اثني عشرَ بيتاً هو مأخوذ من عدد أشهر السنة.

رابعاً ـ ان مكعبي الزهر أو (النرد) هما يتضمنان الاشارة الى معاني القضاء والقدر، بحيث يفاجأ اللاعب، بما تجود به عليه السماء من رزقٍ (في ارقامه) لم يكن يعلمها من قبل!

خامساً ـ إن الانسان يستطيع بحذقه ويقظته ان يفيد من إسعاد القدر له، ولا يُفيده الحذق وحده، اذا لم تصاحبه عناية القدر.

هذه هي حكاية طاولة الزهر لدى الهنود القدماء، ويبدو أنّها انتقلت منهم إلى شعوب فارس ثم الى الشعوب التركية والعربية ثم الى شعوب أخرى كثيرة، واستعمالُ الفاظ الارقام الهندية والفارسية والتركية حتى الآن، دليلٌ على أن هذه اللعبة عريقة في قدمها لدى هذه الشعوب، كقولنا للستة (شيش) وللاربعة (جهار أو دورت) ولرقمي الواحد (هَبْيَكْ) ولرقمي الاثنين

والثلاثة (دوبارة ودوسيه) وما أشبه ذلك.

أما بالنسبة للمكعبات الصغيرة، (أي للزهر أو النرد) فهي قديمةٌ جداً أيضاً وقد وجدت مكعبات النرد عند المصريين القدماء كما عرفها البابليّون قبل خمسة آلاف سنة[1]. وكذلك عرفها بعد ذلك اليونانيّون والرومانيون، وهكذا أصبح مكعب النرد معروفاً تقريباً في جميع أصقاع الارض، ويستعمل في مختلف العاب القمار والتسلية، لا في طاولة النرد وحدها.

ولقد اختلف المسلمون حول تحريم او كراهية العاب التسلية، ولئن كان الاجماع منعقداً على تحريم كل لعبة من العاب المقامرة مهما كان نوعها أو جنسها، فإن بعض أصحاب الحديث النبوي الشريف قد أباحوا اللعب بالشطرنج لما فيه من شحذ الخاطر، لكن الصحيح عند الاحناف هو الكراهة فقط بالنسبة للنرد والشطرنج والاربعة عشر «اي الكونكان بالورق» هذا اذا كان اللعب لمجرد التسلية، وبدون مقامرة على شيء، فأمّا اذا كان فيه قمار فهو حرام محضٌ، لثبوت حرمته بنصّ القرآن الكريم ويعتمد القائلون بمنع لعبة النرد، على قول النبي عليه السلام (من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله)، أما القائلون بكراهيتها فيعتمدون على قوله عليه السلام: (ما أنا دَدٍ ولا الدّدُ مني) أي (لست من الباطل وليس الباطل مني) وعلى ما رواه الأحناف: (كل لعبٍ حرامٌ الا ثلاثة).

ويبدو أن هذه الرخصة الجزئية في لعبة الطاولة، وقصرها على الكراهة دون التحريم، قد سمحت بانتشار اللعبة في جميع بلاد العالم الاسلامي، وكذلك انتقلت على نطاق ضيق الى مختلف البلاد الأوروبية والافريقية، أما في أميركا الشمالية فقد عُرف أن قبائل (الازتك ـ AZTEC) الهندية ما زالت تمارس لعبة النرد منذ مئات السنين، وفي أميركا الوسطى والجنوبية كانت تمارس لدى

(١) جاء في الموسوعة العربية الميسرة أنه عثر على طاولة نرد مع الأحجار ومكعبات الزهر في حفريات بابل.

قبـائـل (الايـروكـواز ـ IROQUOIS) الهنـديـة قبـل وصـول المكتشفين والمستوطنين الاوروبيين الى تلك البلاد، ويلاحظ ان الشكل الحديث للعبة النرد، قد اختُرع في القرن العـاشر الميلادي، أمـا شعبيـة اللعبـة الحديثـة في الولايات المتحدة فترجع الى عام ١٩٣٠ على ما ذكرته (الإنَسيْكلوبيديا) الاميركية.

هذه هي حكاية النرد وطاولته، وهي لعبة ككل العاب القمار والتسلية، تدل على خلق الذي يمارسها وتكشف عما يطويه في أعماقه من خيرٍ أو شر، ومن وداعةٍ أو شراسة، ومن تحايلٍ أو استقامة، وهي إلى هذا تدل على مدى تمسكه بالروح الرياضية في حالتي الفوز أو الفشل، كما تكشف عن مدى تذرّعـه بشتم الحظ الذي جانبه، أو الزّهر الذي عاكسه، فتبدو عليه أمائر الحزن والغيظ، إذا كان فاشلاً، كما تظهر منه علائم التباهي والغرور اذا كان فائزاً، ولو أنصف اللاعبون أنفسهم، لقبل الفاشل والفائز نتيجة المباراة بالرضى والتواضـع ولتبادلا الفاظ الأُلفة والمحبة لأن هذا النوع من التسلية، هو كما قال الهنود القدماء فيه شيء من الحذق، وفيه شيء من الحظ، وفيه الدليل على تقلب الدنيا بأهلها كما تتقلّب الحظوظ وتختلف المهارات، فيا سَعْدَ من أعطى من نفسه خلال لَعِبِه، روحاً رياضية تدل على طبعٍ دمثٍ وخُلُقٍ كريم.

القسم الثاني
قطوف تاريخيّة

- مدينة دمشق.. هل بناها الأنبياء؟..
- الطاغية تيمورلنك.. يتبرك بالأنبياء..
- نظرية «داروين» وعلماء المسلمين..
- آدم وابليس يتكلمان بالعربية!!!

مدينة دمشق ...
هل بناها الأنبياء ؟

لا نعرف بين مدائن الأرض، مدينة تاريخية قديمة، شغلت حيّزاً كبيراً، من صفحات التاريخ البشري العام، كمدينة دمشق، ولا نعلم أن هنالك مدينة أخرى، نُسجت من حولها الأساطير، وتفنّن بالحديث عنها الرواة، كمدينة دمشق، فهي في رأي الدمشقيين أقدم مدينة في التاريخ، وهي فعلاً من أقدم مدن الأرض، التي كان لها صدارة مرموقة في أمهات كتب الدنيا ومختلف أساطير الأمم.

اسمها اليوم دمشق، وكان اسمها بالمصري القديم «دمسكو» وتسمى بالانكليزية «Damascus» وبالفرنسية «Damas» وهي قصبة بلاد الشام، وعاصمة الجمهورية العربية السورية في الوقت الحاضر.

لا يستطيع أحد أن يقدم دليلاً علمياً، يثبت فيه تاريخ انشائها، فكل ما لدينا عن هذا، لا يخرج عن كونه أساطير، تناقلها الكتّاب والرواة جيلاً عن جيل، بشكل تنقصه الحجة، ولا يقوم عليه دليل، على أن الثابت تاريخياً أنها خضعت للآشوريين والفرس أمداً طويلاً، ثم غزاها الاسكندر الأكبر [1] سنة

(١) الاسكندر الاكبر: (اسكندر الثالث) ولد عام ٣٥٦ قبل الميلاد وتوفي عام ٣٢٣ ق. م ملك مقدونيا. ابن فيليب الثاني من اوليمباس. تتلمذ على ارسطو، واخضع الثورات التي قامت بعد موت ابيه في المدن الاغريقية وتراقيا واليريا. وفي عام ٣٣٤ بدأ تنفيذ مشروع محاربة الفرس الذي ورثه عن ابيه. احرز عند نهر جرانيكوس وفي موقعة اسوس نصرين باهرين. ثم قضى قرابة عام لاخضاع صور وغزّة، وفي عام ٣٣٢ يتم شطر مصر فاستسلم له واليها الفارسي، قدّم القرابين للآلهة المصرية، ورسم فرعونا في منفز واعتنق فكرة الملكية =

٣٣٢ قبل الميلاد، وكانت عاصمةً لديمتريوس السلوقي [١]، وانطيوخوس

= الالهية. وأسس مدينة الاسكندرية في طريقه الى معبد الوحي بسيوه. وفي عام ٣٣١ ق. م التقى ثانية بالملك الاكبر وهزمه عند جاوجيلا. توغل في الامبراطورية الفارسية حتى الهند حيث اجتاح البنجاب. رفض جنوده التقدم إلى ما وراء ذلك فعاد أدراجه بعد رحلة شاقة عبر الاقاليم الصحراوية وبلغ سوسة عام ٣٢٤ وتزوج من الاميرة الباكترية روكسانا. وأمر رفاقه ورجاله باتخاذ زوجات شرقيات. وفي عام ٣٢٣ اصيب بالحمّى ومات وعمره ٣٣ سنة. ويصعب الجزم بانه كان ينوي فتح العالم باسره. احرز فتوحات لم يحرز مثلها قائد قبله. وتوفي دون وصية او ترشيح خلف له او تنظيم طريقة الحكم في تلك الامبراطورية الواسعة. نقم عليه رجاله استشراقه وارغامهم على مخالطة الشرقيّين والاصهار منهم. وكان كل ذلك مما توسل به لتوحيد الشرق والغرب والربط بينهما، لا بالقوة وانما بالمساواة والمحبة. قضى على هذه الافكار الكريمة قواده الذين خلفوه واقتسموا امبراطوريته. يعتبر من اعظم القواد وابرز الشخصيات في التاريخ، ويعزى اليه فضل نشر الحضارة الاغريقية في ربوع الشرق واحداث تغييرات جوهرية في مجرى التاريخ « الموسوعة العربية الميسرة ص ١٥١ - ١٥٢ ».

ويظن كثير من الناس والباحثين والكتّاب ان اسكندراً هذا، هو « ذو القرنين » الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف (الآيات ٨٤ - ٨٧ - ٩٥) وقد قال الشهيد سيّد قطب في كتابه « ظلال القرآن » (ج ٥ جزء ١٦ ص ٨) ما يلي:

إن النصّ (القرآني) لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه او مكانه، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، انما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة الى تحديد الزمان والمكان في اغلب الاحيان. والتاريخ المدوّن يعرف ملكاً اسمه الاسكندر ذو القرنين، ومن المقطوع به انه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن فالاسكندر الاغريقي كان وثنياً. وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة.

ويقول ابو الريحان البيروني المنجم في كتاب: « الآثار الباقية عن القرون الخالية » إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من حمير مستدلاً باسمه، فملوك حمير كانوا يلقبون بذي، كذي نواس وذي يزن. وكان اسمه ابو بكر بن افريقش، وانه رحل بجيوشه الى ساحل البحر الابيض المتوسط فمرّ بتونس ومراكش وغيرهما وبنى مدينة افريقية فسميت القارة كلها باسمه، وسمّي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس ا هـ.

(١) ديمتريوس: (ديمتريوس نيقاتور) ابن ديمتريوس الاول ملك سورية: « الموسوعة العربية ».
ديمتريوس اسم ملكين من السلوقيين: ديمتريوس الأول سوتر أي المخلص ملك سورية=

الكبير حيث عرفت باسم « ديمترياس » وضمها « بومبي » [٢] الى الامبراطورية الرومانية سنة ٦٤ قبل الميلاد، وصارت فيما بعد أهم مدن « ديكاپوليس ».

فتحها العرب المسلمون بعد وقعة اليرموك سنة ٦٣٥ للميلاد على يد خالد ابن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح، وأصبحت فيما بعد عاصمة العالم الاسلامي في عهد الدولة الأموية، وظلت من أهم المدن الاسلامية في عهد العبّاسيين، وقد هاجمها هولاكو المغولي عام ١٦٢٠، وحاصرها ونهبها تيمورلنك سنة ١٤٠٠، وسيطر عليها العثمانيون عام ١٥١٦، وظلت خاضعةً لهم مدة أربعماية سنة حيث احتلها الحلفاء عام ١٩١٨، ثم خضعت للانتداب الفرنسي عام ١٩٢٠، وأصبحت عاصمة الجمهورية السورية منذ حصولها على الاستقلال، وفيها قبور عدد كبير من الصحابة والعلماء والملوك والسلاطين، من أشهرها: قبور الخليفة الأموي الأول معاوية ابن أبي سفيان، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، ونور الدين الشهيد محمود زنكي، والملك الظاهر بيبرس، والموفق ابن قدامه. والشيخ محيي الدين ابن عربي. وشيخ الاسلام ابن تيمية وغيرهم كثير.

ومن أطرف الأساطير المروية عن تاريخ انشاء مدينة دمشق ما جاء في

= (١٦٢ - ١٥٠ قبل الميلاد). حفيد انطيوخوس الكبير. وديمتريوس الثاني نيكاتور أي الظافر ابن سلوقوس فيلوباتور ملك سورية (١٤٦ - ١٢٥ ق.م): « المنجد في الأدب والعلوم ».

(٢) بومبي الاكبر: (١٠٦ - ٤٨ ق. م.) قائد روماني قضى على ثورة العبيد في ايطاليا بزعامة سبارتاكوس. تولى بومبي قوات السناتور عندما غزا قيصر ايطاليا واندلع لهيب الحرب الأهلية. وبعد هزيمته في فارسالوس (٤٨ ق. م) فر إلى مصر حيث قتل عند وصوله. كان بومبي قائداً ناجحاً دون أن يكون فذّاً وكانت أخصّ عيوبه الغرور والجهل بالشؤون السياسية. كانت حياته العامة مثلاً صارخاً للخروج على العرف والقواعد الدستورية.
بومبي سكستوس: قائد روماني ابن بومبي الاكبر بعد هزيمة ابيه في فارسالوس (٤٨ ق. م.) استمر يقاتل قيصر واتباعه حتى عام ٤٤ قبل الميلاد: « الموسوعة العربية الميسرة ».

التاريخ الكبير لابن عساكر الشافعي، روايةً عن وهب بن منبّه الذي قال:

« إن الذي بنى دمشق، هو غلام ابراهيم الخليل عليه السلام، وكان حبشياً، وهبه له نمرود بن كنعان بعد خروجه من النار، وكان اسم هذا الغلام « دمشق » فسميت المدينة باسمه.

وفيما رواه كعب الأحبار قبل ألف وأربعمايه سنة أن أول حائط وضع على وجه الأرض هو حائط حرّان ودمشق ثم بابل.

وقال اسحق بن أيوب القرشي أن شيطاناً يقال له « جيرون » بنى لنبي الله سليمان بن داوود سقيفة مستطيلة على عمد، وبنى حولها مدينةً لطيفةً، فسمي المكان باسم الباني وهو جيرون، وهذا المكان لا يزال معروفاً حتى الآن داخل مدينة دمشق باسم « الجيرونية » وهو في حي النوفرة، شرقي الجامع الأموي.

وهنالك مصادر أخرى قالت أن « جيرون » و« بريد » هما ولدا سعد بن لقمان بن عاد، وقد سكنا دمشق، فسمى « جيرون » و« باب البريد » باسمهما، و« باب البريد » لا يزال أيضاً موجوداً حتى الآن بجوار الجامع الأموي.

ومن الأساطير المروية أيضاً أن ذا القرنين هو الذي أمر غلامه ببناء هذه المدينة بعد عودته من المشرق، وفراغه من بناء السد الذي أقامه بين يأجوج ومأجوج وأهل خراسان، وكان اسم غلامه هذا « دمشق » فسميت المدينة باسمه، ويقال أن دمشق هذا، بنى في دمشق بيتاً لعبادة الله ورثته الأديان المتتابعة للغاية ذاتها، وحين جاء الاسلام صار البيت مسجداً جامعاً وهو المعروف بالجامع الأموي وفيه يقول الشاعر:

الله أكبرُ إنَّ هـــــذا المسجـــــدا
مـــن عهـــد آدم قـــد تـــأسس معبـــدا

وفيما ذكره ياقوت الحموي في « معجم البلدان » أن دمشق هي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونزاهة رقعة،

وكثرة مياه، ووجود مآرب، وقال أيضاً أنها سميت دمشق، لأنهم دَمْشَقُوا في بنائها أي أسرعوا...

وروى ياقوت أيضاً أن ابراهيم الخليل عليه السلام ولد بعد بناء دمشق بخمس سنين، وأن الذي بناها هو جيرون بن سعد بن عاد، بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام، وسماها « إرم ذات العماد ».

وقال آخرون، سميت دمشق باسم دمشق بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أخو فلسطين، وايلياء، وحمص، والأردن، إذ أن كل واحد من هؤلاء قد بنى موضعاً باسمه.

وروى بعض الأوائل، أن مكان دمشق كان دارا لنوح عليه السلام وفيها بنى السفينة التي نجته ومن معه من الطوفان، وأنه أخذ خشب السفينة من جبل لبنان، وكان ركوبه في السفينة، من عين الجرّ من ناحية البقاع.

وقالوا في قول الله عز وجل: ﴿وآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ ومَعِينٍ (١)﴾ إنها هي دمشق ذات رخاء من العيش وسعة، ومعين، أي كثرة المياه.

وذكر بعض المفسرين أن معنى الآية الكريمة، ﴿والتِّينِ والزَّيْتُونِ وَطُورِ سِنِين (٢)﴾ أن التين هو الجبل الذي بنيت عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي بني عليه بيت المقدس، وطور سنين: شعب حسن، وكذلك قيل أن « إرم ذات العماد » المذكورة في القرآن الكريم هي دمشق.

وفيما روى عن النبي ﷺ أنه قال « إن عيسى عليه السلام سينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق » وفي حديث مروي عن رسول الله ﷺ يقول فيه: « إنّي رأيت الملائكة في المنام. أخذوا عمود الكتاب فعمدوا به إلى الشام. فإذا وقعت الفتن فإن الايمان بالشام. ».

(١) سورة المؤمنون. الآية ٥٠.
(٢) سورة التين. الآية ١ و٢.

وفي حديث آخر: « عليكم بالشام. فمن أبى فليلحق بيمنه. وليستق من غدره. فإنَّ الله عز وجل تكفل لي بالشام وأهله »[1].

ويقول رواة الحديث: إن من تكفّل الله به فلا ضيعة عليه.

وقال ابن عساكر المولود عام ٤٩٩ هـ أي قبل حوالي تسعماية سنة، في تاريخه: ان دمشق بنيت على الكواكب السبعة وأن بانيها جعل لها سبعة أبواب، وصور على كل باب منها كوكباً من هذه الكواكب، وأنه وجد في كتاب عتيق أن « باب كيسان » للزهرة، والباب الصغير « للمشتري » وباب الجابية « للمريخ »، و« باب الفراديس » لعطارد، وباب الفراديس الآخر المسدود « للقمر » « ولم يذكر اسم البابين الآخرين ».

وكما كان لدمشق تاريخ حافل في الحرب والسياسة، وفي العلم والفن والعمران، كذلك كان لها مكان بارز على ألسنة الكتاب والأدباء والشعراء، حتى قال فيها ياقوت الحموي « إنه لم توصف الجنة بشيء، إلا وفي دمشق مثله، ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أغراض الدنيا ودقيقها، ألا وهو أوجد فيها من جميع البلاد ».

ولقد ذكرها الشعراء العرب، الجاهليون والمخضرمون والاسلاميّون والمحدثون، في أشعارهم التي كان لها ـ ولا يزال ـ في صميم الأدب العربي مقام ومكان، وخلّدها البحتري وأبو تمام وأبو الطيب وأبو العلاء مروراً بمختلف عصور الانحطاط أو « الدول المتتابعة » حتى عصر النهضة حيث قال فيها أمير الشعراء أحمد شوقي في القرن العشرين:

لولا دمشق لما كانت « طليطلةٌ »
ولا زهت ببني العباس « بغدان »
آمنت بالله واستثنيت جنته
دمشق روح وجنات وريحان

(١) هذه الأحاديث صحيحة انظر رسالة « تخريج أحاديث فضائل الشام وأهله ». للمحدث الألباني الصفحة ١١/١٢ و٣٠/٣١ و٥٤، ٥٧ طبع المكتب الإسلامي.

قال الرفاق وقد هبَّت خمائلها
الأرض دار لها « الفيحاء » بستان
جرى وصفق يلقانا بها بردى
كما تلقّاك دون الخلد رضوان

وكان البحتري قد قال قبل ألف سنة من التاريخ:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفى لك مُطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلدٍ
مستحسنٍ، وزمان يشبه البلدا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً
أو يانعاً خضراً، أو طائراً غردا

وقال حمدان بن مطاوع في وصف دمشق:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها
فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلا استخفّني
الى بردى والنيربين حنين
وقد كان شكّي في الفراق يروعني
فكيف أكون اليوم، وهو يقين؟!
فوالله ما فارقتكم قالياً لكم
ولكنَّ ما يُقضى فسوف يكون

أما أبو محمد عبد الله ابن النقار فقد قال:

سقا الله ما تحوي دمشقُ وحيّاها
فما أطيبَ اللذات فيها وأهناها

لبسنـــا بها عيشـــاً رقيقـــاً رداؤه
ونلنـا بها مـــن صفـــوة الحب أعلاهـــا
فيـا صـاحبي إمّـا حملـتَ رسـالـةً
الى دار أحبـــاب لها طـــاب مغنـــاهـــا
فقـل: ذلـك الوجـد المبرّح ثـابـتٌ
وحرمـة أيـام الصبـا مـا أضعنـاهـا
فـإنْ كـانـت الأيـام أنسـت عهـودنـا
فلسنـا على جـراح البُعـاد ننسـاهـا

وفي أثناء الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ م اهدى أمير الشعراء أحمد شوقي دمشق قصيدة من غرر شعره قيلت في حفلةٍ أقيمت في حديقة الأزبكية بالقاهرة بعد أن قصفت دمشق بالمدافع وأحرقت بعض أحيائها في (كانون الثاني - يناير - ١٩٢٦) نقتطف منها ما يلي:

سلام مـن صبـا بـردى أرقُّ ودمعٌ لا يُكفكفُ يـا دمشـقُ
ومعـذرة اليراعـة والقـوافي جلال الرَّزءِ عـن وصـفٍ يـدِقُّ
ألستِ دمشـقُ للاسلام ظئراً ومـرضعـةُ الأبـوَّةِ لا تُعـقُّ
صلاح الديـن تـاجُـكِ لم يُجَمَّـلْ ولم يـوسم بـأزيـنَ منـه فـرقُ
وكلّ حضارةٍ في الأرض طـالـتْ لها مـن سرحِـكِ العُلـويّ عِـرقُ
سماؤُكِ مـن حُلَـى الماضي كتـابٌ وأرضُكِ من حُلَـى التـاريـخِ رقٌّ
بنيـت الدولـة الكبرى ومُلكـاً غبـار حضـارتيْـهِ لا يشـقُّ
لـه بـالشـام أعلامٌ وعُـرسُ بشـائـره بـأنـدلسٍ تُـدَقُّ
جـزاكم ذو الجلالِ بني دمشـقٍ وعـزّ الشّـرق أولُـهُ دمشـقُ

ومؤلف هذا الكتاب: «قطوف المعرفة» بشير العوف، ظلمته السياسة فترة من الزمن وأبعدته عن موطنه دمشق الشام مدة اثني عشر عاماً استوطن خلالها مدينة بيروت الغالية من لبنان، وما زال مقيماً بها حتى الآن. وحين سُمح له

بزيارة الشام بعد تلك الأعوام الاثني عشر. اهدى دمشق الشام خماسية من شعره قال فيها:

أفنيـت عُمـري في الهوى وطيـوبِـهِ
وَرَشَفْتُ مـن أقـداسِـهِ حـبَّ الوطـنْ
أرخصـتُ روحـي في سبيـل علائـه
وحقـرتها فيما اقـدّمُ مـن ثمنْ
غـادرتـه يـومـاً بظلم سيـاسـةٍ
فحُرمتُ عـزَّ المجد بـلْ.. طعمَ الوسـنْ
كـانت سنينـاً غبتهـا بتحـرّقٍ
يـا ليتني قـد مِـتُّ دون أسىٰ الشَّجَـنْ
وَاللهِ لـو أُعطيـتُ دنيـا فتنـةٍ
لم أَرْضَ غير الشّـام لي اغلى سكـنْ

ولا تذكُر دمشق إلا ويُذكر معها «الجامع الأمويّ» بالكثير من التكريم والتقدير، وفيه يقول «ياقوت الحموي»[1] في كتابه «معجم البلدان» ما يأتي:

(١) ياقوت الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) هو ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، ابو عبد الله شهاب الدين، مؤرخ ثقة، من ائمة الجغرافيين ومن العلماء باللغة والادب، أصله من الروم، اسر من بلاده صغيراً، وابتاعه ببغداد تاجر اسمه (عسكر بن ابراهيم الحموي) فربّاه وعلّمه وشغّله بالاسفار في متاجره. ثم اعتقه سنة (٥٩٦ هـ) وأبعده، فعاش من نسخ الكتب بالاجرة، وعطف عليه مولاه بعد ذلك، فأعطاه شيئاً من المال واستخدمه في تجارته فاستمرّ إلى أن توفي مولاه، فاستقلّ بعمله، ورحل رحلة واسعة انتهى بها إلى مرو (بخراسان) وأقام يتجر، ثم انتقل الى خوارزم، وبينما هو فيها خرج التتر (سنة ٦١٦) فانهزم بنفسه تاركاً ما يملك، ونزل بالموصل وقد اعوزه القوت، ثم رحل الى حلب واقام في خان بظاهرها إلى ان توفي، اما نسبته فارجّح انها انتقلت إليه من مولاه عسكر الحموي، من كتبه: (معجم البلدان) و(ارشاد الاديب) ويعرف بـ (معجم الادباء) و(كتاب الدول) و(اخبار المتنبي) و(معجم الشعراء) وغيرها.. «الاعلام، لخير الدين الزركلي» (ج ٩ ص ١٥٧).

وأما جامعها فقد وصفه بعض أهل دمشق فقال: هو جامع المحاسن، كامل الغرائب، معدود إحدى العجائب، قد زُوِّرَ بعض فرشه بالرّخام، وأُلِّف على أحسن تركيب ونظام. وفوق ذلك فَصٌّ اقداره متفقة، وصنعته مؤتلفة، بساطه يكاد يقطر ذهباً، ويشتعل لهباً، وهو منزّه عن صور الحيوان. إلى صنوف النبات وفنون الأغصان. لكنّها لا تجنىٰ إلاّ بالأبصار، ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثّمار، بل باقية على طول الزّمان، مدركةٌ بالعيان في كلّ أوان، لا يمسُّها عطش مع فقدان القطر. ولا يعتريها ذبول مع تصاريف الدهر، وقالوا: عجائب الدنيا أربع: قنطرة سِنجة[1]، ومنارة الاسكندرية[2] وكنيسة الرّها[3]، ومسجد دمشق وكان قد بناه الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك بن مروان[4]. وكان ذا همة في عمارة المساجد. وكان الابتداء بعمارته في سنة ٨٧ للهجرة وقيل سنة ٨٨، ولما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم اننا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم، يعني كنيسة يوحنا، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم، وإن شئتم اضعفنا لكم الثمن فأبوا وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد، وقالوا أنا نجد في كتبنا أنه لا

(١) سنجة: بكسر اوله، والباقي كالذي قبله، بلد بغرشستان معروف عندهم وغرشستان هي الغور، والغور جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة واما غَزْنَة فهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند «معجم البلدان» (ج ٣ ص ٢٦٥ وج ص ٢٠١ وص ٢١٨).

(٢) منارة الاسكندرية وردت ترجمتها في مكان آخر من هذا الكتاب.

(٣) الرّها، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام لها تاريخ عريق اتى عليه بشيء من التفصيل ياقوت الحموي في «معجم البلدان».

(٤) الوليد بن عبد الملك بن مروان، ابو العباس، (٤٨ - ٩٦ هـ) من ملوك الدولة الاموية في الشام، ولي بعد وفاة ابيه (سنة ٨٦ للهجرة) فوجّه القواد لفتح البلاد، وكان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وامتدت في زمنه حدود الدولة العربية «الاسلامية» إلى بلاد الهند فتركستان فأطراف الصين، شرقاً فبلغت مسافتها مسيرة ستة أشهر بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكان ولوعاً بالبناء والعمران، فكتب إلى والي المدينة يأمره بتسهيل الثنايا (أي استصلاح الأراضي) وحفر الآبار وان يعمل فوارة فعملها وأجرى =

يهدمها أحد إلاّ خُنق. فقال لهم الوليد: فأنا أول من يهدمها، وقام وعليه قباء أصفر فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراده، واحتفل في بنائه بغاية ما أمكنه، وسهل عليه إخراج الأموال، وعمل له أربعة أبواب في شرقيّه (باب جيرون) وفي غربيّه (باب البريد) وفي القبلة (باب الزيادة) و(باب الناطقانيين) في مقابله و(باب الفراديس) في دير القبلة، ويقال إن الوليد أنفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين وحُملت إليه الحسبانات بما أنفق عليه. على ثمانية عشر بعيراً فأمر باحراقها ولم ينظر فيها، وقال: هو شيء أخرجناه لله فلم نتبعه؟. ومن عجائبه (أي عجائب المسجد) أنه لو عاش الانسان مائة سنة، وكان يتأمله كل يوم لرآى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صنائعه واختلافها. وضجّ الناس استعظاماً لما أنفق فيه الوليد وقالوا: أخذ بيوت أموال المسلمين وأنفقها فيما لا فائدة لهم فيه، قال: فخاطبهم وقال: بلغني أنكم تقولون وتقولون، وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح. فسكت الناس. وقال أنه عمل في تسع سنين، وكان فيه عشرة آلاف رجل في كل يومٍ يقطعون الرخام. وكان فيه ستمائة سلسلة من الذهب، فلما فرغ، أمر الوليد ان يسقَّف بالرصاص فطلب من كل البلاد وبقيت قطعة منها لم يوجد لها رصاص إلاّ عند امرأةٍ وأبت أن تبيعه إلا بوزنه ذهباً، فقال:

= ماءها، وكتب إلى البلدان جميعها باصلاح الطرق، وعمل الآبار. ومنع المجذومين من مخالطة الناس، وأجرى لهم الأرزاق. وهو أول من أحدث المستشفيات في الاسلام، وجعل لكل اعمى قائداً يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادماً، ورتّب للقراء أموالاً وارزاقاً، وأقام بيوتاً ومنازل يأوي إليها الغرباء. وهدم مسجد المدينة والبيوت المحيطة به، ثم بناه بناءا جديداً وصفّح الكعبة والميزاب والاساطين في مكة. وبنى المسجد الأقصى في القدس. وبنى مسجد دمشق الكبير المعروف بالجامع الأموي، فكانت نفقات هذا الجامع (١١,٢٠٠,٠٠٠) دينار اي نحو ستة ملايين دينار ذهبي من نقود زماننا. بدأ فيه سنة ٨٨ للهجرة وأتمّه أخوه سليمان، وكانت وفاته بديرُمّران (من غوطة دمشق) ودفن بدمشق. ومدة خلافته ٩ سنوات وثمانية أشهر وكان نقش خاتمه: «يا وليد إنّك ميت».

اشتروه منها ولو بوزنه مرتين. ففعلوا فلما قبضت الثمن قالت: إني ظننت أن صاحبكم ظالم في بنائه هذا، فلما رأيت انصافه فأشهدكم أنه لله، وردّت الثمن، فلما بلغ ذلك إلى الوليد أمر أن يكتب على صفائح المرأة «لله»، ولم يدخله فيما كتب عليه اسمه، وانفق على الكرمة التي في قبلته سبعين ألف دينار.

وقال موسى بن حمّاد البربري: رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفوراً سورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف التي في قوله تعالى ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فسألت عن ذلك. فقيل لي أنه كانت للوليد بنت. وكانت هذه الجوهرة لها فماتت. فأمرت أمّها أن تُدفن هذه الجوهرة معها في قبرها، فأمر الوليد بها فَصُيّرت في قاف «المقابر» من «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر» ثم حلف لأمّها أنه قد أودعها المقابر فسكتت.

وحكى الجاحظ في كتاب «البلدان» قال: قال بعض السلف، ما يجوز أن يكون أحد أشدّ شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم، وهو مبني على الأعمدة الرُّخام طبقتين. الطبقة التحتانية أعمدة كبار، والتي فوقها صغار. في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء الذهب والأخضر والأصفر. وفي قبليّه القبّة المعروفة بقبة النّسر، ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها، ولها ثلاث منائر أحداها وهي الكبرى كانت ديدباناً للروم، وأقرّت على ما كانت عليه، وصُيّرت منارة ويقال في الأخبار إن عيسى عليه السلام ينزل من السماء عليها. ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق إلى أن وقع فيه حريق (سنة ٤٦١ هـ) فاذهب بعض بهجته وهذا ما كان في صفته.

هذه دمشق، مدينة التاريخ الخالدة، وهذا مسجدها العظيم (الجامع الأموي) وستبقى دمشق وسيبقى إن شاء الله مسجدها الجامع رمز إيمانٍ، وعنوان مجدٍ، وعبرة تاريخ.

الطاغية تيمورلنك يتبرك بالأولياء؟!

في كوخٍ متواضع، من قريةٍ صغيرة، قريبةٍ من «سمرقند» قصبة المنطقة المعروفة في الوقت الحاضر، «بتركستان الروسية» ولد قبل أكثر من ستماية سنة، طفل مغولي أعرج سُمّي بتيمورلنك قيل إنه من سلالة جنكيز خان، ما لبث أن كبر وشب، فالتحق بالجندية، بعد أن تلقى علومه الابتدائية، ثم أصبح قائداً كبيراً فاعتلى العرش وفرض سلطانه، على سمرقند، ثم على ما جاورها ولم يَهُلّ عام ١٣٦٩ للميلاد، إلا وتمت سيطرته على المنطقة كلها، بعد أن أخضع جميع خصومه ومنافسيه.

كان تيمورلنك، صاحب طموح وجموح، وكان قاسي الطبع، قويّ الشكيمة، فأحكم قبضته على شؤون بلاده الداخلية، حتى غدا السيد المطاع، الذي يبطُش لأول وهلة، ويفتك لأقل خطيئة، فهابه قومه، وأتمر بأمره جنوده، فتطلع الى الغزو والفتح، واشرأبت عنقه نحو السيطرة على شعوب أخرى، فجهّز جيشه، كأقوى ما يكون تجهيز الجيوش في ذلك العصر، وغادر سمرقند، وتوجه إلى فارس فأخضعها، واستولى على الجنوب الروسي كله، ثم غزا بلاد الهند، وفتح مدينة دهلي، واستمر في حروبه متنقلاً من نصرٍ إلى نصر، ومن بلدٍ إلى بلد، حتى جاء دور البلاد الشامية فغزاها من حدودها الشمالية، وفتح مدينة حلب، واستباحها لمدة ثلاثة أيام، ثم تابع زحفه نحو الجنوب، ففتح السلمية، وحماة، وحمص، حتى وصل إلى دمشق، فحاصرها، ثم فتحها بالانقسام بين أهلها، وأخضعها لسلطانه.

وفي هذا جاء في كتاب « مروج الذهب » أن جيش تيمورلنك، لما دخل حلب، نهب وأحرق وسبى وقتل، مما حمل النساء على طلي وجوههن بالطين أو بأي شيء آخر، لاخفاء محاسن وجوههن، فلم يفدهن هذا في تفادي السبي على أيدي الغزاة الفاتحين.

وحين وصل الى حماة صنع بأهليها نفس الصنيع، أما أهالي حمص، فقد عفا عنهم وعن مدينتهم ووهبها لخالد بن الوليد . . . !

وعلى أبواب دمشق، ومن فوق أسوارها قابله الدمشقيون بقتال عنيف، حمل تيمورلنك على المخادعة وطلب الصلح، حتى إذا تمّ له ذلك، أمر أمراءه فدخلوا دمشق، ومعهم سيوف مشهورة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها، وسبوا نساء دمشق، وساقوا الأولاد والرجال مربوطين بالحبال، ثم طرحوا النار في المنازل والمساجد والدور، وكان يوماً عاصف الريح، فعمّ الحريق جميع البلد، وارتفع لهيب النار فوق السحاب، ثم رحل تيمورلنك الى بغداد ففتحها للمرة الثانية بعد أن أقام في دمشق ثمانين يوماً، وبعد أن احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق. وزالت أبوابه، وتفطّر رُخامه، ولم يبق، غير جدره قائمة، وذهبت مساجد دمشق وكنائسها ودورها وقياسرها وحمّاماتها، وصارت أطلالاً بالية، ورسوماً خالية.

ولقد رثاها آنئذٍ بهاء الدين البهائي، في قصيدةٍ مطولة، وصف ما حلّ بها وبحلب وبحماة من جرائم التتار، فقال فيما قال:

لَهَفي على تلك المروجِ وحسنِها
حَفَّت بهنَّ طوارق الحدَثان
لَهَفي على وادي دمشق ولطفِهِ
وتبدُّلِ الغِزلان بالثيران
وشكا الحريقَ فؤادُها لما رأت
نورَ المنازل أُبدلت بدخان

ابني أمية أين يُمن وليدكم
والمُغل تفتك في ذرى الأركان
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشَوا
ألقَوا عرابدهم على النسوان
حُزني على الشهباء قبل حماتنا
هو أول وهي المحل الثاني
لا تدَّعي الأحزان يا شقراءنا
السبق للشهباء في الأحزان
رتعت كلاب المُغل في غزلانها
وتحكمت في الحُور والولدان
لَهَفي عليك منازلاً ومنازهاً
ومقامَ فردوس وبابَ جنان

ولم يكتف تيمورلنك بما صنعه بالشام، بل نقل معه منه الى سمرقند الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع، وكلَّ ماهرٍ في فن، وبارعٍ في عمل، فأخذ النسّاجين والخيّاطين والحجّاريين والنجّاريين، والنقّاشين والبنّائين والقوّاسين كما أخذ العلماء والفقهاء وحفّاظ القرآن والعبيد والنساء والصبيان والبنات ومالا يأتي عليه حصر أو عدّ من أموالٍ وأثاثٍ ومتاع.

وفيما روي عن المؤرخ ابن خلدون، الذي أجاب طلب تيمورلنك بكتابة كراريس وصف فيها بلاد المغرب، أن ابن خلدون آثر أن يهرب منه إلى مصر ناجياً بنفسه، مخافة أن يحمله أسيراً إلى بلاده، وكان قد قدّم له هدية ـ كما سيأتي تفصيل ذلك ـ يوم اجتماعه الأول به، منها علب حَلوى مصريه، فتحها تيمورلنك وأطعم منها رجاله ولم يذقها، وأهداه سجادة صلاة فوضعها الى جانبه، وكذلك أهداه مصحفاً شريفاً فقبّله واحتفظ به.

وكان تيمورلنك يتظاهر بالتديّن والتصوف، ويصدر عن رأي المتصوفة،

لأنهم أعانوه بنفوذهم في العامة، على تدويخ الأقطار، وعقد القلوب على محبته!!

وصفه أحمد أمين فقال هو واحد من هؤلاء الأفذاذ الذين يظهرون من حين لآخر في التاريخ، فيصبغون أديم الأرض بالدماء، أمثال الاسكندر وهولاكو ونابليون، فيتجلى عليهم الله باسم المنتقم الجبار، كما يتجلى على الأنبياء باسم الرحمن الرحيم، أو الهادي الأمين.

وقال أيضاً: «كان لتيمورلنك قلب أقسى من الحديد، وأصلبَ من الجُلمود، لا تأخذه رأفة، ولا تلجه رحمة، سُلِّط على ممالك آسيا فدوّخها، وصاد سلاطينها، وأباد البلاد، وأهلك الحرث والنسل، وأزهق النفوس، وبنى القلاع من الرؤوس، وكان كما حدّث عن نفسه «في مقدمة ثلاثة أشياء: الخراب والقحط والوباء».

وكان تيمورلنك الى هذا، يألف العلماء والأولياء، وتلَذّه مجالسُهم ورؤيتهم، وتُبهجه أحاديثهم ومناقشتهم يستمد البركة من الأولياء ويزورهم، ويطلب دعاءهم، وإذا فتح بلدة، دعا علماءها للمجادلة معهم، والويل ثم الويل للعالم الذي يخطيء، فإنه لا يرحمه... وكثيراً ما يطرح عليهم الأسئلة المحرجة، ويوقعهم في المآزق الصعبة، فتارةً يُسَرّ ويعفو ويَبسِم، وأحياناً يعبس ويتجهّم ويقتل.

كان له إمام يصلي به، وهو عالم جليل، يتولى مناقشة العلماء ومجادلتهم، أمام تيمور، هو عبد الجبار المعتزلي الحنفي الخوارزمي، وقد صحبه في فتح الشام وتولّى مناقشة علمائه وإحراجَهم.

وجه عبد الجبار هذا، سؤالاً لكبير علماء حلب هو ابن الشِّحنة، فقال له:

سلطاننا يقول: إنه بالأمس قُتل منّا، وقُتل منكم، فمن الشهيد؟ قتيلنا أم قتيلكم؟!

فوجم العلماء.. وقالوا: هذا والله ما بلغنا عنه من التعنت.

وأُحْرج ابنُ الشحنة حقاً إذ كيف يرد؟ أو كيف يقول: قتيلنا هو الشهيد وسيف تيمورلنك مسلول فوق رأسه؟!

لكنه كان داهية ملهماً فقال:

هذا سؤال سئل عنه رسول الله (ﷺ) وأجاب عنه، فبهت الحاضرون، وغضب تيمور، وقال أيسخر الشيخ من كلامي؟.. كيف سئل رسول الله وكيف أجاب؟!

قال الشيخ:

جاء أعرابي الى رسول الله وقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل حميّةً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل ليُرى مكانُهُ، فأينا في سبيل الله؟! فقال رسول الله: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو الشهيد»[1]

فسرّ تيمورلنك لهذا الجواب، وأعجب بدهاء الشيخ، ولطف بديهته، وأخذ يؤانس العلماء.

سمع تيمورلنك ـ وهو بخراسان ـ عن ولي من أولياء الله، ذي كرامات ظاهرة، ومكاشفات مشهورة، اسمه زين الدين أبو بكر الخوافي، فقصده تيمورلنك، ونزل عن فرسه ودخل عليه، فقام الشيخ له، فانحنى تيمورلنك على رجله يقبّلها، فوضع الشيخ يده على ظهره ثم رفعها، فقال تيمور: «لو لم يرفع الشيخ يده لقُضي عليّ، فقد تصورت أن السماء تقع على الأرض وأنا بينهما». ثم جلس في أدب بين يدي الشيخ وقال له: لِمَ لا تأمرون ملوككم بالعدل بين الرعية؟! فقال له الشيخ: أمرناهم، فلم يأتمروا، فسلطناك عليهم، ففرح تيمور بهذا وقال: «ملكتُ الدنيا وربِّ الكعبة»!

---

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير» للألباني (٦٢٩٣)، طبع المكتب الإسلامي.

وللعلاّمة ابن خلدون[1] مواقف خاصة مميزة مع تيمورلنك، يمكن أن تؤخذ على أنها شفاعة منه لديه بحق المصريّين وأهل دمشق الذين خضعوا لسيطرته وجبروته، ويمكن أن تؤخذ على أنها ممالأة منه للفاتح الطاغية الظالم، جرّت له المنافع المادية فضلاً عن منافع الأبهة والتكريم، وقد اعترف هو بما فعل، وأورده في تاريخه بقلمه: ولكل انسان الحق في أن يحكم له أو عليه بما يستحق.. إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

(١) هو ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) مؤرخ وفيلسوف اجتماعي، عربي مسلم مشهور، ينتهي نسبه الى وائل بن حجر من عرب اليمن. اقامت اسرته في تونس، حيث ولد ونشأ وتعلم بها تنقل في بلاد المغرب والاندلس، ثم اقام بتلمسان وشرع في تأليف تاريخه. عاد إلى تونس، ومنها انتقل الى مصر، واتصل بسلطانها برقوق. فولاه قضاء المالكية. حج الى مكة (١٣٨٧ م) ورافق جيش المماليك الذي أنفذ لصد زحف تيمورلنك عن بلاد الشام. انقطع للتدريس والتأليف، فاتمّ كتابه: «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وله قيمة كبرى بين كتب التاريخ الاسلامي ولمقدمته خطر عظيم لاشتمالها على فصول في اصول العمران والنظريات الاجتماعية والسياسية وتصنيف العلوم وغير ذلك مما جعل ابن خلدون مؤسسا لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الذي يقول عنه انه فرع فلسفي جديد لم يخطر على قلب ارسطو ولذلك نعى على الفلاسفة المتقدمين اقتصارهم على دراسة العالم العلوي والذات الالهية. ووقف هو - اي ابن خلدون - عند العالم الذي نعيش فيه لأن معرفتنا به اقرب من معرفتنا بعالم العقل الذي يعنى به الفلاسفة. وعلى ذلك بحث ابن خلدون في احوال العمران والملك والكسب والعلوم والصنائع المختلفة بوجوه برهانية وأقل ممن يأتي بعده ان يستمر بالبحث، وتحقق امله على ايدي الفلاسفة الغربيين امثال فيكو واوغست كونت وهربرت سبنسر. وقد احسن ابن خلدون في دعوته إلى الرحمة بالاطفال، وفي معارضته استعمال الشدة معهم. فبيّن المفاسد الخلقية والاجتماعية التي تنجم عن القسوة وقال إن القهر والعسف مما يقضي على انبساط النفس ونشاطها ويدعو الى الكسل ويحمل على الكذب والخبث والمكر والخديعة ويفسر معاني الانسانية: «الموسوعة العربية الميسرة».

ومما يؤخذ على ابن خلدون انه انتقد البدء بتعليم القرآن الكريم للاطفال لأن الاطفال - بحسب زعمه - في هذه الحالة يقرأون ما لا يفهمون. فلا تحصل لهم الملكة اللغوية، ولا شك في ان العكس هو الصحيح. وقد ثبت بعد التجربة ان الاطفال الذين يبدأون بتعلم القرآن هم الذين يملكون زمام اللغة بعد ذلك ويضيفونها إلى ما يحصّلونه من العلوم الاخرى فيما اذا تهيأت الفرصة لهم، هذا فضلاً عن المعاني الايمانية التي تتأسس في قلوبهم منذ حداثة السّن. بسبب ابتدائهم بتعلم القرآن: «بشير العوف».

وذكر ابن خلدون شيئاً من تاريخ تيمورلنك ولقائه به فقال: هو تيمور المعروف بتَمَر بن طرغاي.. قام بأمر الصبيّ الجالس على عرش التتار «كوهتي». والصبي هو ابن ملكٍ للتتار اسمه «ساطلمش». فكفله تيمور وتزوج أمّه ومدّ يده الى ممالك بني دوشي خان التي كانت على دعوتهم وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وخوارزم، وأجاز إلى طبرستان وخراسان فملكهما، ثم ملك أصبهان وزحف إلى بغداد فملكها من يد أحمد بن أُوَيس، وفرّ أحمد مستجيراً بملك مصر وهو الملك الظاهر برقوق فاجاره ووعده النصر من عدوّه.

ويفصّل ابن خلدون الحوادث فيذكر كيف حاول تيمرلنك أن يقيم صلحاً مع سلطان مصر وكيف خرج الظاهر برقوق من مصر وجمع العرب والتركمان وعزم على مقاتلة التتار حتى اناخ على الفرات، وتحدث ابن خلدون عن خروجه مع سلطان مصر فقال ما موجزه:

كنت أنا يومئذٍ معزولاً عن الوظيفة فاستدعاني دواداره يِشْبَك (أي حامل دواة السلطان) وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان فتجافيت عن ذلك. ثم أظهر العزم عليَّ بليّن القول وجزيل الأنعام فأَصْخَيت وسافرت معهم ثم وصلنا إلى الشام، واسرينا فصبّحنا دمشق وتيمور في عساكره قد رحل من بعلبك قاصدا دمشق. ونمي الخبر إلى السلطان واكابر امرائه، وقيل أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها فأجمع الأمر على الرجوع إلى مصر وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عليهم الأنباء بعد رحيل جيش سلطان مصر...

ويبدو أن الانقسام قد وقع بين أهل دمشق الذين أرادوا أن يطلبوا الأمان من تيمورلنك وبين نائب قلعة دمشق الذي ابى عليهم ذلك ونكِره، فخرج القضاة إلى تيمور فأجابهم إلى التأمين، وردّهم باستدعاء الوجوه والقضاة. فخرجوا إليه متدلّين من السّور. فأحسن تيمور لقاءهم وكتب لهم الرقاع

بالأمان، وردّهم على أحسن الآمال. واتفقوا على فتح المدينة من الغد ففتحوها ودخلها تيمور وأكرم علماءها ووجوهها وحاصر عساكر قلعتها فانزل بها وبهم الخراب والدّمار.

ويقول ابن خلدون إن القاضي برهان الدين أخبره بأن تيمورلنك سأله عنه وهل سافر إلى مصر مع عساكر السلطان أم أقام بدمشق؟ فأخبره بمقامه بالمدرسة حيث كان. وقال ابن خلدون: وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه، فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول وبلغني الخبر من جوف الليل، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سَحَراً إلى جماعة القضاة عند الباب وطلبت الخروج أو التدلّي من السور لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر. فأبوا ذلك أولاً. ثم أصخوا لي ودلّوني من السور، فوجدت بطانة تيمور عند الباب، ونائبه الذي عيّنه للولاية على دمشق واسمه شاه ملك فحييّتهم وحيّوني، وقدّم لي «شاه ملك» مركوباً وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه فلما وقفت بالباب خرج الأمر باجلاسي في خيمة هناك. ثم زيد في التعريف باسمي أنّي القاضي المالكي المغربي فاستدعاني ودخلت عليه بخيمة جلوسه، فرأيته متكئاً على مرفقه وصِحان الطعام تمرّ بين يديه. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام وأومیت إيماءة الخضوع فرفع رأسه ومدّ يده إليّ فقبّلتها (!!!) وأشار بالجلوس فجلست.

وبعد أن أفاض ابن خلدون بالحديث عن المساجلة التي جرت بينه وبين تيمورلنك وفقهاء خوارزم، وكيف سأله عن الأهل والولد وعن توليه قضاء المالكية بمصر عاد إلى حديث التدلّي من السور للقاء تيمورلنك فقال:

كنت لما لقيته وتدليت من السور ـ كما مرّ ـ أشار عليَّ بعض الصحاب ممّن يخبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم، فأشار بأن اطرفه ببعض هديّة، وإن كانت نذرة فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم. فانتقيت من

سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً، وسجادة أنيقة ونسخة من قصيدة «البردة» المشهورة للبوصيري في مدح النبي ﷺ وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة، وجئت بذلك فدخلت عليه وهو بالقصر الأبلق جالس في ايوانه فلما رآني مقبلاً مَثَل قائماً. وأشار إليّ عن يمينه، فجلست قليلاً ثم استدرت بين يديه وأشرت إلى الهديّة التي ذكرتها، وهي بيد خُدّامي، فوضعتها واستقبلني ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه، قام مبادراً فوضعه على رأسه ثم ناولته البردة فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها، ثم ناولته السجّادة فتناولها وقبّلها، ثم وضعت علب الحلوى بين يديه، وتناولت منها حرفاً على العادة في التأنيس (أي أكل ابن خلدون قطعةً منها قبل أن يقدمها لتيمور) ثم قسم هو ما فيها على الحاضرين... ثم حوّمتُ على الكلام بما عندي في شأن نفسي وشأن أصحاب لي هناك، فقلت: أيّدك الله، لي كلام أذكره بين يديك، فقال: قل. فقلت أنا غريب بهذه البلاد غربتين، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأي، وأخرى من مصر وأهل جبلي بها، وقد حصلت في ظلّك. وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي. فقال: قل الذي تريده أفعله لك، فقلت: حال الغربة انستني ما أريد، وعساك ـ أيّدَك الله ـ أن تعرف لي ما أريد... فقال: انتقل من المدينة إلى الاوردو عندي (أي المعسكر) وأنا إن شاء الله أُوفي كنه قصدك، فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار إليه بإمضاء ذلك، فشكرت ودعوت وقلت: وبقيت لي أخرى فقال: وما هي؟! فقلت هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر، من القراء والموقعين بالدواوين، والعمال صاروا إلى إيالتك. والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانكم كبير، وعمالاتكم متسعة. وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشدّ من حاجة غيركم. فقال: وما تريد لهم؟ قلت: مكتوب أمانٍ يستنيمون إليه، ويعوّلون في أحوالهم عليه، فقال لكاتبه: أكتب لهم بذلك. فشكرت ودعوت وخرجت مع الكاتب حتى كتب مكتوب الأمان. وختمه شاه ملك بخاتم

السلطان، وانصرفت إلى منزلي، ولما قرب سفره، واعتزم على الرحيل عن الشام، دخلت عليه ذات يوم، فلما قضينا المعتاد، التفت إليَّ وقال: عندك بغلة هنا؟ . . قلت: نعم. قال: حسنة؟ قلت: نعم. قال: وتبيعها فإنا اشتريها منك، فقلت: أيّدك الله، مثلي لا يبيع من مثلك انما أنا أخدمك بها. وبأمثالها لو كانت لي. فقال: أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان. فقلت: وهل بقي احسان وراء ما أحسنت به، اصطنعتني، واحللتني من مجلسك محلّ خواصّك، وقابلتني من الكرامة والخير. بما ارجو الله أن يقابلك بمثله. وسَكتَ وسَكتُّ، وحُملت البغلة ـ وأنا معه في المجلس ـ إليه. ولم أرها بعد.

ثم يتحدث ابن خلدون عن عودته إلى مصر، وكيف سافر من الشام إلى صفد ثم إلى غزة حيث تعرض في الطريق لعصابة من قطّاع الطرق سلبته كل ما يحمل من مال ومتاع ولباس وتركته عارياً حتى وصل إلى قرية استدرك منها ما يعينه على متابعة السفر فوصل إلى مصر وهناك لقيه رسول تيمورلنك فأعطاه ثمن البغلة . . . « !!! » وأشار ابن خلدون إلى أن الرسول قد سرق قسماً من الثمن وزعم أنه هكذا أعطوه المبلغ.

وكان من (براعة) ابن خلدون أنه حسب حساب المستقبل فخشي من أن يفتضح أمره فيما قدمه من ودّ ومصانعة لتيمورلنك وبما حصل منه على المال الوفير « كثمنٍ للبغلة » ولهذا سعى ابن خلدون إلى صاحب الدولة في مصر فأعلمه بالمال الذي وصل إليه من تيمور، وكأنه يستأذنه في ذلك فأذن له صاحب الدولة وكذلك فعل ابن خلدون مع صاحب المغرب فقد كتب إليه رسالة أوردها ابن خلدون بنصها في تاريخه وقد جاء فيها ما يلي:

« وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك، فهي بخير والحمد لله وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني (المصري) إلى الشام عندما زحف التتار إليه من بلاد الروم والعراق مع ملكهم تيمورلنك، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك، وخرّبها جميعاً، وعاثت عساكره فيها بما لم يُسمع

اشنع منه، ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبقه إلى دمشق، وأقام في مقابلته نحواً من شهر، ثم قفل راجعاً إلى مصر، وتخلف الكثير من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلّفين، وسمعت أن سلطانهم تيمورلنك سأل عني، فلم يسعْ إلا لقاؤه، فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير. واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمت عنده خمسة وثلاثين يوماً، اباكره وأراوحه، ثم صرفني، وودّعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر. وكان طلب مني بغلة، كنت أركبها، فأعطيته إياها، وسألني البيع فتأففت منه. لما كان يعامل به من الجميل فبعد انصرافي إلى مصر، بعث إليَّ بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا ».

وبالفعل تخلص ابن خلدون من ورطات الدنيا في وقتٍ كان فيه الذبح والقتل والحرق والتدمير يجري على أشدّه في بلاد الشام، فما أبرع ما كان عليه ابن خلدون من حنكة ودهاء. . حتى أنه استطاع أن يبيع بغلته للطاغية تيمور (!!!).

وختم ابن خلدون كلامه عن تيمورلنك فقال:

وهذا الملك (تيمورلنك من زعماء الملوك وفراعنتهم، والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض (أي ينتمي إلى المذهب الشيعي) لما يرون من تفضيله لآل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء. إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللّجاج، بما يعلم وما لا يعلم. عمره بين الستين والسبعين، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، فيجرّها في قريب المشي، ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة، وهو مصنوع له، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده[1].

(١) راجع تاريخ العلامة ابن خلدون (المجلد السابع من الصفحة ١١٢٩ إلى الصفحة ١٢٢٢).

وهكذا جمع تيمورلنك في حياته المتناقضات العجيبة، ومات عام ١٤٠٥ للميلاد بعد أن خلّف تاريخاً حافلاً بالقسوة والتنكيل. وسفك الدم، وتخريب البلاد، ورضي لنفسه بأن يسلكه المؤرخون في سلك الطغاة العتاة الظالمين المتجبرين.

هل القرد ... أصل الإنسان ؟

ينطوي تاريخنا العربي الاسلامي، على كنوز حضارية علمية فكرية، لا حدود لها، غير أن غبار الاهمال، وتراكم حجب النسيان، قد أزال من الأذهان، بريق تلك الكنوز، وألقى بها في غياهب الظلام!

ولا شك في أن الباحث المنقب، في ثنايا التاريخ، سيصادفه العجب حين يتأكد له أن العرب المسلمين، كان لهم في كل علم باع، وضمن كل فن أثر، وعلى كل حضارة خيوط وملامح.

ولقد نبغ فيهم علماء ومفكرون، كانوا رواداً أوائل، أسدوا الى بني الانسان خدمات جلّى، في مختلف حقول الطب والفلك والرياضيات والكيمياء، وعالم الفكر والفلسفة والاختراع.

ولا نبالغ إذا قلنا، بأن الكثير من فروع العلم والفلسفة والنظريات الحديثة، التي ذاع صيتها خلال القرنين الماضيين، والتي خلّفت أثراً كبيراً في مضمار التقدم العلمي الشامل، كان لها عند العرب ومفكريهم، قبل مئات السنين، بذور بحوث، وملامح اكتشافات، وقواعد نظريات، شكلت دعائم جيدة للأسس التي قامت عليها فيما بعد، مختلف التطورات المتصلة بحقول الفلسفة والعلم والمعرفة، على صعيد انساني شامل.

فلو أخذنا مثلاً، العالم الانكليزي الفذ، تشارلز داروين، صاحب نظرية «أصل الأنواع» الذي اشتهر بنظرية «الانتخاب الطبيعي» وبحوث تطور الحياة الكونية، في مضامير النشوء والارتقاء، مع نظرية الصراع والتنافس لبقاء

الأصلح، لرأينا لأهم آرائه وبحوثه ونظرياته، بذوراً كثيرة، نثرها عدد كبير من علماء العرب المسلمين، في كتب ومخطوطات، لا حصر لها ولا عدّ.

لقد ردّ العلامة «داروين» مذهبه المعروف، في تفسير حقائق التطور المتعلقة بنشوء الأرض وأصل الإنسان، الى خمسة عوامل أساسية هي «الوراثة» و«التحول» و«التوالد» و«التنافس على البقاء» و«بقاء الأصلح» وخلص الى رسم «شجرة الأحياء» التي قامت عليها نظريته، والتي قرر فيها أن الخلية الحية الأولى، قد انبثقت على الأرض من الجماد، ثم انبثق عن الخلية، نبتة نبات، وخلية بروزيات، تتمتع كل منهما بنسمة حياة ثم تتابع التطور ـ في نظره ـ خلال آلاف ملايين السنين، حتى تواجدت السعادين ذوات الذيول، والقردة فاقدة الذيول، واستمر التطور وظهر الانسان الأول فوق كوكب الأرض، هذا الانسان الذي استمر في توارثه وتحوله وتوالده وتنافسه وتطوره، حتى صار على ما هو عليه الآن.

هذه هي خلاصة نظرية داروين في أصل الحياة، يستدل عليها ببراهين وأمثلة وشواهد، قبلها بعض العلماء، ورفضها البعض الآخر.

وإذا كان داروين الذي قامت له دنيا العلم وقعدت، بسبب نظرياته التي قلبت الكثير من المفاهيم رأساً على عقب، والتي قابلها الكثيرون من العلماء، بادىء ذي بدء، بالكثير من الهزء والاستخفاف، لأنها تقول بأن (أصل الانسان سعدان)، فإن هذا لم يمنع الجمهرة الواسعة الأخرى، من رجال العلم والمعرفة، من احترام نظريته، واعطائها حقها من التقدير، واعتبارها فتحاً مبيناً في عالم البحث والتنقيب عن الحقيقة، حتى أن موت داروين عام ١٨٨٢ (أي قبل حوالي ماية سنة) كان صدمة كبرى لصرح العلم والبحث، حملت دنيا العلوم على المبالغة بتشييعه ودفنه وتكريمه وتخليده، فدفن في مقبرة عظماء الأمة البريطانية، في «وستمينستر» وحمل نعشه عشرة من جهابذة العلماء، بينهم اثنان من الأسرة المالكة، وأقيم له تمثال في المتحف البريطاني الأهلي، للتاريخ

الطبيعي، اكتتبت بإقامته شعوب وحكومات ومؤسسات، من مختلف أنحاء الأرض.

هذا هو داروين، وهذا شيء من نظريته. فماذا عند العرب والمسلمين من بذور آرائه وعلومه ونظرياته؟.

عند العرب، فيلسوف، أديب، مؤرخ، عالم بالكيمياء، اسمه ابن مسكويه أحمد أبو علي الخازن المتوفى عام ٤٢١ للهجرة (١٠٣٠ م).

هذا العالم، قد سبق العلامة داروين بما يقرب من تسعماية سنة بتقديم نظريات مشابهة لنظريات داروين، إن لم نقل مطابقة لها.

يقول ابن مسكويه في كتابه «الفوز الأصغر» ما يلي:

«إن أول أثر ظهر في عالمنا هذا، من نحو المركز، بعد امتزاج العناصر الأولى، أثر حركة النفس في النبات، الذي تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء، وللنبات في قبول الأثر، مراتب مختلفة لا تحصى، إلا أننا نقسمه إلى ثلاث مراتب هي الأولى والوسطى والأخيرة، وأن لكل مرتبة من هذه المراتب غرضاً كبيراً، وبين الأولى والوسطى مراتب كثيرة، إلى أن يقول: «ان مرتبة النبات الأولى، هو لما نجم من الأرض ولم يحتج الى بذور»، وهذا يعني في لغة العصر، نبات الخلية الواحدة، ثم يعدد ابن مسكويه مراتب النبات الأعلى فالأعلى، فيعتبر نشوء النبات من الجماد، ثم نشوء الحيوان من النبات، ثم نشوء الانسان من الحيوان، فيفصّل هذا كله تفصيلاً دقيقاً، حتى لقد بلغ به الأمر أن قال في المراتب التي تدرج فيها الانسان، حتى حصل على صورته الحاضرة قولاً صريحاً، جاء فيه، بأن القرود وأشباهها من الحيوان، الذي قارب الانسان في خلقة الانسانية، ليس بينها الا اليسير، بحيث إذا تجاوزها صار إنساناً.

هذا ما قاله ابن مسكويه وهو ما سبق به داروين بحوالي تسعماية سنة، غير أن داروين قد حظي بالشهرة والتخليد والتكريم، بينما ظل ابن مسكويه، عالماً

مغموراً لا يعرفه ولا يسمع عنه إلا الاقلاء من الناس .

وابن مسكويه ، ليس وحده في هذا الباب ، فهناك « أخوان الصفا » وهم جماعة دينية سياسية فلسفية ، عاش افرادها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وكان لهم آراء ونظريات وأخلاقيات ، جمعوها في رسائل متسلسلة سموها « رسائل إخوان الصفا » وتزيد عن الخمسين رسالة ، منها الرسالة العاشرة ، وفيها ما نحن بصدده الآن ، من بحث أصل الأنواع ونظرية النشوء والارتقاء ، حيث اتفق « أخوان الصفا » مع داروين باختيار الأسلوب العلمي للبحث ، فاعتبروا بهذا من أول من قال ، بأن عالم الجماد والحيوان والنبات ، عالم واحد ، يفصل بين بعضها بعضاً حدود انقلابية دقيقة .

وأخوان الصفا [1] ، الذين سبقوا داروين بأكثر من تسعماية سنة أيضاً ، ليسوا أيضاً وحدهم ، فهناك العالم المؤرخ ابن خلدون الذي سبقه أيضاً بحوالي خمسماية سنة ، وهذا قال في تفسير حقيقة النبوة بأن عالم التكوين قد ابتدأ من أفق المعادن الجامدة ، فاتصل بأفق الحشائش وما لا بذور له ، فكان آخرُ أفق

---

(١) قال في الموسوعة العربية الميسرة ص ٦٦ ما يلي :

« اخوان الصفا » جماعة سرية دينية وسياسية وفلسفية ، أو اسماعيلية باطنية عاشوا بالبصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ويذكر منهم خمسة : محمد بن مشير البستي الملقب بالمقدسي . وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني . ومحمد بن احمد النهرجوري والعوضي . وزيد بن رفاعة . جماعة تآلفت وتصافت ، واجتمعت على القدس والطهارة . وصنعوا مذهبا زعموا انه يؤدي إلى الفوز برضوان الله . ولذلك سمّوا بـ « اخوان الصفاء وخلاّن الوفاء » . جمعوا معارف عصرهم العلمية والفلسفية والدينية في رسائل تزيد على الخمسين وتكوّن ما يشبه دائرة المعارف . مذهبهم تلفيق اخذوا فيه من كل علم . اعتقدوا ان الشريعة دُنست بالجهالات واختلطت بالضلالات . ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ففيها الحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، ومتى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال . تقع رسائلهم في اربعة اقسام : قسم في الرياضيات وقسم في الجسمانيات (الطبيعيات) وقسم في النفسانيات (العقليات) وقسم في الناموسيّات (الالهيات) فضلاً عن الرسالة الجامعة التي تجمع وتوضح كل ما جاء بهذه الرسائل ا هـ .

النبات مثل النخل والكرم ، متصلاً بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ، كما أن عالم الحيوان اتسع وتدرج في التكوين ، إلى الانسان صاحب الفكر والرؤية والحسّ والإدراك .

وكذلك أورد الجاحظ ، المتوفى قبل أكثر من ألف ومائة سنة بحوثاً قيمة في هذا المضمار ، بكتابه « الحيوان » لا يتسع المجال لتفصيلها ، وحسبنا القول بأنها تعتبر في العصر الحاضر من مقومات مذهب النشوء والارتقاء ، والأفكار الحديثة التي تتناوله .

بالطبع لا نريد أن ننتزع بهذا الحديث ، فضل أحد من رواد العلم والمعرفة ، فلكل عالم وفيلسوف ومفكر جهده وفضله ومكانه ، في بناء صرح الحضارة الانسانية ، ولكننا نريد أن نقول بأن التاريخ العربي الاسلامي ، حافل بعدد ضخم من الرواد الأوائل ، الذين أسهموا ببناء صروح العلم والفلسفة ومختلف جوانب المعرفة ، وما أحاديث الفارابي وابن سينا والرازي وابن رشد والغزالي ، ببعيدة عن أذهان المتتبعين ، على أن النقطة التي تعتبر فاصلة بين داروين وعلماء المسلمين ، ترتكز على أن علماء المسلمين يعزون نظرية التطور والتحول للحكمة الالهية بينما ينسبها داروين لمبدأ الانتخاب الطبيعي والتطور الذي يعطي حق البقاء للأصلح .

وبالطبع ، ليس من مهمتنا في هذا البحث ان نثبت نظرية داروين أو نظرية من سبقه من علماء المسلمين ، ولا أن نرفض أبحاث داروين أو أبحاث غيره ، فهذا مجال واسع له أربابه من أهل العلم والبحث الذين لا بدّ لمرور الزمن ، ولتطور أساليبهم ومكتشفاتهم مع مجيء الأجيال القادمة من أن تعطي لعلمهم وفكرهم ونتاجهم حقه من النموّ والبقاء ، أو نصيبه من الزوال والفناء . وتاريخ الانسانية يشهد على أن هناك نظريات وأفكاراً وآراءًا ، قد حالفها البقاء والنموّ ، بينما حالف غيرها الفناء والزوال ، وتظلّ عجلة التقدم الانساني الحضاريّ سائرةً إلى الأمام ، حيث لا يمرّ يوم إلا ويزداد فيه اقتناع المرء بأن الانسان رغم تقدمه

الهائل في اكتشاف مضامين الكون ـ بما في ذلك اتساع نطاق التكنولوجيا اتساعاً رهيباً بعد اكتشاف الذرة ومحاولات سبر أغوار الفضاء ـ لا يزال يشعر ـ أي الانسان ـ بأن العلم والاكتشاف لا يزالان يدبّان على عتباتهما الصغيرة الأولى. وأن كل ما حققه إنسان العصر الحديث لا يخرج عن كونه ذرة صغيرة في مضمار الكون الكبير فسبحان من أبدع هذا الكون الهائل. وصدق الله العظيم الذي يقول في محكم كتابه:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ (١).

---

(١) سورة الإسراء. الآية ٨٥.

آدم وإبليس يتكلمان بالعربية

في أساطير التاريخ العربي القديم، روايات وأقاصيص، أخذت مكانها في صدور كتب قيمة، ودوّنها مؤرخون كبار، وتناقلتها الأجيال جيلاً عن جيل، مع أن كل كلمة من كلمات هذه الأساطير، تدل على نفسها بأنها كلمة منحولة، تتناسق بحياءٍ مع أخواتها في قصةٍ موضوعة، ليس بينها وبين الحقيقة والواقع أية صلة أو نسب.

طبعاً.. ليس التاريخ العربي، بِدْعاً بين تواريخ الأمم والشعوب، وليس هو وحده الذي يحفل بمثل هذه الأساطير، فكل أمة لها أساطيرها، وكلّ شعب له تاريخه، وليس هنالك أمة إلا وعندها أساطير قديمة، لا يقرّها فهم، ولا يرجّحها عقل، على أن أمة اليونان، تظل أغنى أمم الأرض بما تملكه من أقاصيص وأساطير..

☆ ☆ ☆

لقد عثرت في عدد من كتب التاريخ القديم، وبينها كتاب مشهور اسمه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ألّفه المؤرخ عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليٍ المسعودي، المتوفىٰ قبل ألف وثلاثة وأربعين عاماً، على نتفٍ طريفة، وأساطير غريبة، منها أنَّ آدم عليه السلام كان يتكلم اللغة العربية، وكان ينظم الشعر العربي، وكذلك ابليس، كان متقناً للعربية، ولنظم قوافيها، حتى أنه تقارض الشعر مع آدم، عليه السلام وهاجاه به..

لم ينقل المسعودي هذه الأسطورة على أنها حقيقة تاريخية، لكنه عزاها الى ما يرويه الناس، وإلى ما تورده كتب التاريخ والسير والانساب القديمة، وأوردها ضمن قصة طريفة قال فيها:

إن آدم زوّج أخت هابيل لقابيل، كما زوّج أخت قابيل لهابيل، مُفَرِّقاً في النكاح بين البطنين، وأن هابيل وقابيل قرّبا قربانا إلى الله، فنحر هابيل أجود غنمه وأفضل طعامه وقرّبه، ونحر قابيل اسوأ غنمه وشرّ ماله وقرّبه، وقد وردت حكاية هذا القربان في القرآن الكريم، وفي التوراة: (كتابِ العهدِ القديم) حيث تقبل الله قربان هابيل، ورفض قربان قابيل.

في سورة المائدة قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَٱتْلُ عليهِمْ نَبَأَ ٱبنَيْ آدَمَ بالحقّ إذ قَرّبَا قرباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ. قال لأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إليكَ لأَقْتُلَكَ إنّي أَخَافُ اللهَ ربَّ ٱلعَالَمِينَ إنّي أُرِيدُ أنْ تبُوءَ بإثْمِي وإثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أصْحَابِ ٱلنَّارِ وَذَلِكَ جزاءُ ٱلظَّالِمِين ✯ فَطَوَّعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلخَاسِرِينَ ✯ فَبَعَثَ ٱللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي ٱلأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَة أَخِيهِ. قال يَا وَيْلَتِي أَعَجَزْتُ أنْ أكُونَ مِثْلَ هَذَا ٱلغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْأة أخِي. فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ﴾ (١).

يقول المسعودي: إن قابيل اغتال هابيل، وقتله شرخاً بحجرٍ في بلد من بلاد دمشق بأرض الشام. فلمّا قتله تحيّر في توريته، وحمله يطوف به، فبعث الله غراباً قتل غراباً آخر، ثم دفنه، فتعلم منه قابيل ذلك وقال ما حكاه عنه القرآن الكريم: «يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي. فأصبح من النادمين» وهكذا دفن قابيل أخاه.

(١) «سورة المائدة الآيات ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠».

ونحن نعرف أن في منطقة قريبة من دمشق تقع على جبل ميسلون المطلّ على سهل الزبداني ووادي بردى. يقوم مقام يعرف باسم (مقام النبي هابيل) لا يزال موجوداً حتى اليوم، والله وحده هو الذي يعلم متى أقيم هذا المقام؟.. ومن الذي دفن فيه؟.. هذا إذا كان فيه مدفون.

أما المسعودي فقد تابع القصة وقال: إن آدم عليه السلام قد حزن على ولده هابيل، وأسف لفقده. ثم أورد شيئاً من الشعر العربي قال عنه إن الناس يَعزونه إلى آدم وفيه ـ على ما زعموا ـ يقول أبو البشر:

تَغَيَّـــرَتِ البلادُ وَمَـــنْ عليهـــا
فـــوجـــهُ الأرضِ مُغبَـــرٌّ قبيـــحُ
تَغَيَّـــرَ كُـــلُّ ذي لـــونٍ وطعـــمٍ
وَقـــلَّ بشـــاشـــةَ الوجـــهُ الصبيـــحُ

ويستمرّ سيرُ أبيات القصيدة بركاكةٍ واضحة وتكسيرٍ في الوزن، وإقواءٍ في حركات القافية الى أن يقول:

وجـــاورنـــا عـــدوٌّ ليسَ ينسَـــى
لَعينٌ، لا يموتُ فنستريـــــــــحُ
فمالي لا أجـــودُ بسكـــبِ دمـــعٍ
وهـــابيـــلٌ تضمَّنَـــهُ الضريـــحُ
أرى طـــولَ الحيـــاةِ عليَّ غمّـــاً
ومـــا أنـــا مـــن حيـــاتي مُسْتَـــريـــحُ!

ويبدو أن ابليس، حين سمع اللعنة تنزل عليه من فم آدم، لم يشأ هو أيضاً ـ على ما تخيّل واضع القصة ـ أن يكون بعيداً عن قول الشعر العربي (!!) فقال المؤرخ إن آدم لما نطق بهذا الشعر أجابه ابليس من حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه، وراح يقول لآدم على نفس القافية والرويّ:

تَنَـــحَّ عـــن البلادِ وســـاكنِيهـــا
فقـــدْ في الأرض ضـــاقَ بـــكَ الفسيـــحُ
وكنـــتَ وزوجُـــكَ الحوّاءُ فيهـــا
أآدم مـــن أذى الدنيـــا مُـــريـــحُ؟
فما زالت مُكـــايـــدتي ومكـــري
إلى أنْ فـــاتـــكَ الثمـــنُ الربيـــحُ
فلـــولا رحمةُ الرحمنِ أضحـــتْ
بكفِّـــكَ مـــن جِنـــانِ الخُلْـــدِ ريـــحُ

☆ ☆ ☆

ويبدو أن ما جاء في الكتب السماوية المقدسة، عن العداء المتأصّل بين آدم وابليس، منذ بدءِ الخليقة، قد شجَّعَ الكثيرين من رواة الاخبار على انتحالِ قصصٍ، واختلاقِ أساطير، لم يكن آخرَها، ولا أولَها، حديثُ التهاجي بالشعر العربي، بين آدم وابليس، بل كان هنالك من أمثال هذا الشيءُ الكثير.

☆ ☆ ☆

ويبدأ العداء بين آدم وابليس، منذ قال الله تعالى للملائكة على ما جاء في القرآن الكريم: ﴿إنّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أتَجْعَلُ فيها من يُفسدُ فيها، وَيَسْفِكُ الدماء، ونحنُ نسبِّحُ بحمدِكَ، ونقدسُ لك، قال إنّي أعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وقصة خَلقِ آدم، ثم خلقِ حواء ثم ارتكابهما للخطيئة، ونزولِهما من الجنة إلى الأرض، قصة طويلة لا يتسع المجال لايرادها، ويكفي أن نشير الى ما قاله القرآن الكريم:

(١) سورة البقرة. الآية ٣٠.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ (١).

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فإنَّكَ رَجِيمٍ. وإنَّ عَليكَ لَعْنَتِي إلىٰ يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ رَبِّ فأنْظِرْنِي إلىٰ يوم يُبْعَثُون، قال فإنَكَ من المُنْظرين إلىٰ يَوْمِ الوقت المعلوم، قال فبعزَّتكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِين، إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِين﴾ (٢).

☆ ☆ ☆

وهكذا بدأ العداءُ بين آدمَ وابليس، وأعطى هذا كلُّهُ مزيداً من الفرص، للنَّحَلةِ ورواةِ الأساطير، فاخترعوا... ونشروا... ورووا... حتى جعلوا آدم وابليس، ناطقين باللغة العربية، كما جعلوهما أديبيْن متنافسيْن، يتخاطبان بلغة العرب، ويتهاجيان بالشعر العربي، وهذا لعمر الحق، هو من أساطير الأولين!

☆ ☆ ☆

أما تاريخ خلق آدم وابليس وبدء صراعهما على هذه الأرض فهو موضوع آخر. تحدثت عنه الكتب السماوية المقدسة باسهاب إلاّ أن هذه الكتب قد حصرت الموضوع تقريباً بالعموميات ولم تتحدث كثيراً عن الجزئيات، بل إن السنة النبوية الشريفة قد فصّلت نوعاً ما بعض هذه العموميات، لكنّ الوضع قد أصاب بعض فصول خلق آدم وابليس. مما أتاح لرواة الأساطير وصانعي القصص أن يزيدوا وينقصوا.. ويطرّزوا ويوشّوا.. ليجلبوا اهتمام العامة ويستحوذوا على عقول البسطاء وهكذا حفلت كتب التاريخ بالكثير من الروايات إضافة إلى بعض الأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ وهي تفتقر إلى

(١) سورة البقرة. الآية ٣٤.
(٢) سورة ص. الآيات ٧٧ - ٨٣.

الصحة والتوكيد كما تحتاج إلى الكثير من البحث والتحقيق .

وحيث أننا لم نأخذ على عاتقنا في هذا الكتاب مهمة التحقيق والتصحيح فقد اكتفينا بايراد ما في بعض كتب التاريخ المرموقة لنقبس منها ما يفيد هذا الكتاب في توسيع أفق قطوف المعرفة وألوان الثقافة .

بين كتب التاريخ التي أخذنا منها كتاب « الكامل في التاريخ » للشيخ العلاّمة عز الدين أبي الحسن علي الشيباني المعروف بابن الأثير ، فهو قد أرّخ من بدء حياة الكون إلى بدايات القرن الهجري السابع حيث توفاه الله في شعبان ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره فدفن في الموصل من العراق ، ولا يزال قبره معروفاً بجوار شارع كبير .

ذكر ابن الأثير في تاريخه أولئك الذين أعطاهم الله تعالى ملكاً . وأنعم عليهم فكفروا نعمته وجحدوا ربوبيته واستكبروا ، فسلبهم الله نعمته وأخزاهم وأذلّهم .

فأولهم وإمامهم ورئيسهم ابليس . وكان الله تعالى قد حسَّن خلقه وشرّفه وملّكه على سماء الدنيا والأرض فيما ذُكر ، وجعله مع ذلك خازناً من خزّان الجنة فاستكبر على ربه ، وادّعى الربوبية ، ودعا من كان تحت يده إلى عبادته ، فمسخه الله تعالى شيطاناً رجيماً ، وشوّه خلقه وسلبه ما كان خوّله ، ولعنه وطرده عن سماواته في العاجل ، ثم جعل مسكنه ومسكن اتباعه في الآخرة ، نارَ جهنم نعوذ بالله تعالى من غضبه ومن الحور بعد الكور (أي من النقص والزيادة) . ويتابع ابن الأثير فيقول :

وأما الأحداث التي كانت في ملكه وسلطانه ، فمنها ما روي عن الضحّاك عن ابن عباس قال : كان ابليس من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ . خُلِقوا من نار السّموم من بين الملائكة ، وكان خازناً من خُزّان الجنّة ، قال : وخلقت الملائكة من نور وخلقت الجنّ الذين ذُكروا في القرآن من مارج من

نار ، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت ، وخُلق الانسان من طين . فأول من سكن في الأرض الجنّ ، فاقتتلوا فيها وسفكوا الدماء ، وقتل بعضهم بعضاً . قال : فبعث الله تعالى إليهم ابليس في جند من الملائكة . وهم هذا الحيّ الذين يقال لهم الجنّ . فقاتلهم ابليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال . فلما فعل ذلك اغترّ في نفسه وقال : قد صنعت ما لم يصنعه أحد ، فاطّلع الله تعالى على ذلك من قلبه ، ولم يطّلع عليه أحد من الملائكة الذين معه .

وروى أبو صالح عن ابن عباس ومرّة الهمداني عن ابن مسعود أنهما قالا : لما فرغ الله تعالى من خلق ما أحبّ . استوى على العرش ، فجعل ابليس على ملك سماء الدنيا ، وكان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سُمُّوا الجن لأنهم من خزنة الجنّة ، وكان ابليس مع ملكه خازناً فوقع في نفسه كِبر وقال : ما أعطاني الله تعالى هذا الأمر إلا لمزيّة لي على الملائكة ، فاطّلع الله على ذلك منه فقال : ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾ (١) . قال ابن عباس : وكان اسمه « عزازيل » وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً . فدعاه ذلك إلى الكبر ، وهذا قول ثالث في سبب كبره .

وروي عن عِكْرِمة عن ابن عباس أن الله تعالى خلق خلقاً فقال : اسجدوا لآدم فقالوا : لا نفعل ، فبعث عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق خلقاً آخر فقال : إني خالق بشراً من طين فاسجدوا لآدم فأبوا ، فبعث الله تعالى عليهم ناراً فأحرقتهم . ثم خلق هؤلاء الملائكة فقال اسجدوا لآدم ، قالوا : نعم ، وكان ابليس من أولئك الذين لم يسجدوا .

ويختم ابن الأثير هذه الأقوال فيقول :

وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ

---

(١) سورة البقرة . الآية ٣٠ .

آسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إبْليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ﴾ (١).

وتابع قائلاً: وجائز أن يكون فسوقه من اعجابه بنفسه لكثرة عبادته واجتهاده، وجائز أن يكون لكونه من الجنّ (٢).

☆ ☆ ☆

وفي موضوع خلق آدم عليه السلام قال ابن الأثير:

لما أراد الله أن يخلق آدم، أمر جبريل أن يأتيه بطين من الأرض، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني وتشينني، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً وقال: يا ربّ أنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فاستعاذت منه فأعاذها فرجع وقال مثل جبرائيل. فبعث إليها ملك الموت فعاذت منه فقال: أنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفّذ أمر ربي، فأخذ من وجه الأرض فخلطه ولم يأخذ من مكانٍ واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء وطيناً لازباً. فلذلك خرج بنو آدم مختلفين.

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله تعالى خلق آدم من قبضةٍ من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيّب، ثم بُلّت طينته حتى صارت طيناً لازباً، ثم تُركت حتى صارت حمأً مسنوناً ثم تُركت حتى صارت صلصالاً، كما قال ربنا تبارك وتعالى:

﴿ولقد خلقنا الانسان من صلصالٍ من حمإٍ مسنون﴾ (٣).

واللازب، الطين الملتزب بعضه ببعض (أي الملتزق) ثم تُرك حتى تغيّر وأنتن وصار حمأً مسنوناً، يعني منتناً ثم صار صلصالاً وهو الذي له صوت.

(١) «سورة الكهف ـ الآية ٥٠».
(٢) الكامل في التاريخ لابن الاثير (ج ١ ص ٢٢ ـ ٢٦).
(٣) سورة الحجر ـ الآية ٢٦.

وإنما سمّي آدم لأنه خُلق من أديم الأرض، قال ابن عباس: أمر الله بتربة آدم فرُفعت، فخلق آدم بيده. لئلاّ يتكبّر ابليس عن السجود له. قال: فمكث أربعين ليلة، وقيل اربعين سنة، جسداً ملقىً، فكان ابليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل، أي يصوّت قال: فهو قول الله تعالى:

«مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّار» (١).

يقول: منتن كالمنفوخ الذي ليس بمصمت، ثم يدخل من فيه فيخرج من أسفله ويدخل من أسفله فيخرج من فيه، ثم يقول: لستَ شيئاً.. ولشيءٍ ما خُلقتَ، ولئن سُلّطتُ عليك لأهلكنّك، ولئن سُلّطتَ عليّ لأعصينّكَ، فكانت الملائكة تمرّ به فتخافه، وكان ابليس أشدّهم منه خوفاً.

فلما بلغ الحين الذي أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة:

﴿فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا له ساجدين﴾ (٢).

فلما نفخ الروح فيه، دخلت من قبل رأسه، وكان لا يجري شيء من الروح في جسده إلا صار لحماً. فلما دخلت الروح رأسه عطس، فقالت له الملائكة: قل الحمد لله. وقيل بل ألهمه الله التحميد فقال: الحمد لله رب العالمين. فقال الله له: رحمك ربّك يا آدم، فلما دخلت الروح عينيه نظر إلى ثمار الجنّة، فلما بلغت جوفه، اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنّة، فلذلك يقول الله تعالى:

﴿خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (٣).

فسجد له الملائكة كلّهم إلاّ ابليس إبىٰ واستكبر وكان من الكافرين. فقال الله له: يا ابليس ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه، لم أكن

(١) سورة الرحمن ـ الآية ١٤.
(٢) سورة الحجر ـ ٢٩.
(٣) سورة الأنبياء ـ الآية ٣٧.

لأسجد لبشر خلقته من طين، فلم يسجد كِبراً وبغياً وحسداً فقال الله له:

﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾

إلى قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١).

فلما فرغ من إبليس ومعاتبته وأبىٰ إلاّ المعصية أوقع عليه اللعنة، وأيْأَسَهُ من رحمته وجعله شيطاناً رجيماً وأخرجه من الجنّة (٢).

ثم علّم الله آدم الأسماء، وبعد ذلك أسكنه الجنة، ثم أخرجه منها وأنزله إلى الأرض، وما زالت ذرية آدم في صراع مع ابليس وذراريه فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سورة ص ـ الآيات: ٧٥ ـ ٨٥.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الاثير (ج ١ ص ٢٧ ـ ٣٠)

القسم الثالث
قطوف حضارية

- القرآن الكريم... والهبوط على القمر...
- هل النار مأهولة والهواء مسكون؟...
- مشروب الشاي... الخمرة المحلّلة...
- مشروب القهوة بين الدّين والمجتمع...
- الرسالة البريدية على درب التاريخ...
- العصا... رافقت تاريخ الانسان...
- مملكة النّمل وحياته الاجتماعية...

القرآن الكريم والهبوط على القمر

في موضوع نزول الانسان على سطح القمر نرى من الآيات القرآنية المعجزة ما يحيّر العقول، ويذهل الافهام، من كثرة توافقها مع معطيات العلم الحديث، ومنجزاته الهائلة، التي تؤكد رغم ضخامتها ـ قول القرآن الكريم: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١).

في سورة «الرحمن» يقول الله تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ آلجِنِّ وَآلإِنْس إِن آستَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ آلسَّمَوَاتِ وَآلأَرْضِ، فَآنْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ، فبأيّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢).

هذه الآية تؤكّد:

أولاً ـ قدرة الانسان على النفوذ من أقطار السموات والأرض، بشرط توفّر (السلطان) الذي هو سلطان (العلم) الممنوح من الله للانسان: «إن استطعتم أن تنفذوا، ... فانفذوا، لا تنفذون الا بسلطان».

وهذه الآية تؤكّد:

ثانياً ـ استحالة انتصار الانسان على (كلّ) أقطار السموات والأرض، أو

---

(١) سورة الاسراء ـ الآية ٨٩.

(٢) سورة الرحمن ـ الآيات: ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦.

احاطته بها، لأنه: ﴿يُرسل عليكما شواظ من نار ونحاس، فلا تنتصران...﴾.

☆☆☆

بالنسبة للتأكيد الأول، يكون طبيعياً جداً، ان يتمكن الانسان بسلطان العلم من اطلاق الصواريخ، وارسال سفن الفضاء الى أجواء السموات العليا، تحمل الانسان وأجهزته العلمية والفنية والشخصية، لتحطّ به على كوكب بعد كوكب، بحيث تزداد قدرة هذا الانسان على اكتشاف مجاهل الكون، كلما ازدادت قدرته على الاستفادة من سلطان العلم، وليس هنالك ما يحول بينه وبين استمرار سيره على دروب الخير غير المتناهية، في حقول العلم والكشف والاختراع، بل طبيعي أن الله الذي (علّم الإنسانَ ما لم يعلم) ويسّر له ـ على سبيل المثال ـ امتطاء متون الجو بالطائرات وركوب ثبج الموج الرهيب في المحيطات، ان ييسّر له أيضاً، ركوب سفن الفضاء البعيد لينتقل الى نجومه وكواكبه وأقماره. سواء كان ذلك بواسطة مكّوكات فضائية حافلة ببني البشر، أو بواسطة اقمار اصطناعية سالكة دروب البحث والكشف والعلم.

☆☆☆

وأما بالنسبة للتأكيد الثاني، واعني استحالة قدرة الانسان على الاحاطة (بكلّ) أقول (بكل) أقطار السموات، فان العلم والعقل يؤكدان هذه الاستحالة، بشكل لا لبس فيه ولا غموض.

نعم إن الانسان قد قفز الآن الى القمر، ولكن ما هو القمر بالنسبة لأقطار السموات؟! ومنذا الذي يدري ـ غير الله ـ اين تبدأ حدود السموات وأين تنتهي؟!

ان القفزة الى القمر، على ضخامتها وروعتها وهي التي اذهلت انسان العصر الحديث، لا تبلغ معنى حصول الانسان على قطرة... نعم، قطرة ماء صغيرة

من بحار الأرض ومحيطاتها... وكثير جداً على من يمتلك نقطة ماء واحدة، أن يدّعي بأنه أصبح قادراً على استيعاب مياه محيطات الأرض وسحب السماء!

☆☆☆

ولنستمع قليلا الى ما يقوله العلم الحديث عن أقطار على السموات وكواكبها وأفلاكها: القمر، يبعد عن الأرض مسافة ٣٨٠ ألف كيلومتر، أي حوالي ثلث المليون من الكيلومترات، وهو مع الأرض مرتبط بمجموعتنا الشمسية، التي تتكون من أجرام سماوية، تدور حول هذه الشمس، نتيجة جاذبية قوية ودقيقة ومتوازنة، هذه المجموعة هي: الأرض، وعطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل ويورانس، ونبتون، وبلوتون، بالاضافة الى أكثر من ألف كوكب صغير.

ولبعض هذه الكواكب أقمار تدور معها، فالارض لها قمرها الواحد، والمريخ له قمران، وعطارد والزهرة ليس لهما أقمار، يضاف إلى هذا ان الأرض تبعد عن الشمس حوالي ١٥٠ مليون كيلومتر ـ وسطياً ـ أما المرّيخ فيبعد عنها حوالي ٢٢٥ مليون كيلومتر.

والشمس، ليست أكبر ما في السماء من أجرام، فهنالك، في ذلك الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدوداً، ملايين من النجوم، الكثير منها أكبر من الشمس، وأشد حرارة وضوءاً، (فالشّعرى) اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس، (والسّماك الرامح) حجمه ثمانون ضعف الشمس، ونوره ثمانية آلاف ضعف الشمس، و(سهيل) هذا النجم الصغير الذي نراه صغيراً عند الغروب لشدّة بعده، هو أقوى من الشمس بألفين وخمسماية مرة.

☆☆☆

فاذا كان هذا هو حال مجموعتنا الشمسية بالنسبة للمجموعات الاخرى، التي لم يعرف عنها البشر سوى هذا الجزء الضئيل من التطلع والكشف، فهل يكون امتلاك القمر كله، وهو - كما قلنا - ، لا يبعد عن شمسنا الصغيرة، أكثر من ثلث مليون كيلومتر أكبر من امتلاك قطرة واحدة من مياه محيطات الأرض وسحب السماء؟! وهل هنالك من يجرؤ على القول بأن الانسان سينتصر على أقطار السموات كلها، مع أن اختلاف درجة حرارة الشمس وحدها، بين الصيف والشتاء، تفعل الافاعيل في حياة الانسان، وهي لو كانت أقرب الينا من الحد الذي أوقفها الله عنده، لاحترقت الأرض وانصهرت واستحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء، ولو كانت أبعد مما هو محدد لها لأصاب التجمّد والموت كل ما على الأرض من حياة، مع العلم أن القدْر الذي يلائم حياتنا من حرارة الشمس هو جزء واحد من مليوني جزء من حرارتها العادية.

☆☆☆

من هنا يظل من العجب العجاب ان نسمع فريقاً من الناس، يدعي بالعلم فلسفة، وبالفقه معرفةً، ينفي صحة نزول الانسان على سطح القمر، مع أن القرآن العظيم قد أوضح بأن الانسان قادر بسلطان العلم، الممنوح من الله للانسان، على الصعود الى الكواكب، والنزول على الأقمار، وحسب القرآن الكريم، انه قال قبل ألف وأربعمائة سنة. ﴿وَتَرَى ٱلجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1] ... حسبه انه قال ذلك، في وقت كان الناس يظنون أن الأرض ثابتة مستقرة، فإذا بحقائق العلم تؤكد اليوم أن المجموعة الشمسية تسير كلها، مع دورانها حول نفسها، ومع دورانها حول الشمس... تسير كلها مجتمعة بسرعة خمسة وثلاثين ألف كيلومتر في الساعة، باتجاه واحد نحو برج الجبار، ومع هذا لا تلتقي بأي نجم، ولا تصطدم بأي كوكب، وتظل سائرة في طريقها البعيد على ملايين السنين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي

(١) سورة النمل - الآية (٨٨).

لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ ٱلعَزِيزِ ٱلعَلِيمِ. وَٱلقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ ٱلقَدِيمِ، لاَ ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلقَمَرَ، وَلاَ ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»[1].

نعم... كل تلك الشموس والاقمار، والكواكب والنجوم تسبح كما قال القرآن، في الفضاء الشاسع الرهيب، فلا يختل مدار نجم في حركة، ولا يختل حساب توازنه في حجم، وصدق الله العظيم: ﴿الشَّمْسُ وَٱلقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[2]، و﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ، لآيَاتٍ لأُولِي ٱلأَلْبَابِ﴾[3].

(١) سورة يس - الآيات (٣٨ - ٣٩ - ٤٠).
(٢) سورة الرحمن - (الآية ٥).
(٣) سورة آل عمران - (الآية ١٩٠).

هل النار مأهولة والهواء مسكون ؟!

منذ بدء الوجود، تطلع الانسان الى المزيد من المعرفة، وسعى الى اكتشاف المجهول، وبحث عن كنه الحقيقة، معتمداً على المرئي المحسوس، ومحلقاً يوماً على أجنحة الخيال، ومقتنعاً يوماً آخر بحديث خرافةٍ أو رواية أساطير.

ولو عاد انسان العصر الحديث، الى صفحات التاريخ القديم، لرأى الكثير من أساطير الروايات، وأحاديث الخرافة، قد سارت في ضمير الانسان، جيلاً إثر جيل، وقرناً بعد قرن، تتجاذبه التجارب، وتنضجه معطيات العلم والفكر، وتصقله منجزات الكشف والاختراع، حتى رأينا في عصرنا الحاضر اساطير القصص قد أصبحت وقائع ملموسة، وأحاديث الخرافة قد أضحت علماً وفناً وشيئاً محسوساً.

ترى هل دار في خلد الانسان القديم الذي تحدث عن خرافة « بساط الريح » أن خرافته هذه، ستصبح في العصور المقبلة وسيلة حضارية هائلة، تجسد البساط في طائرة مخيفة، تحمل الموت والحريق والدمار أيام الحروب، كما تجسده في وسيلة مريحة تحمل الانسان من أقصى الدنيا الى أدناها في ساعات قليلة، فتحمل معه الخير والعون والسلامة والامان.

واذا كان « بساط الريح » قد أصبح طائرة في الجو، فان « مرآة علاء الدين » قد أصبحت مبصاراً « تلفزيون » على الأرض، وان « صندوق الغواني » قد غدا مذياعاً « راديو » و« خاتم المارد » قد غدا أجهزة لاقطة، أو مرسلة أو هو كهرباء ومحرك وآلة نفاثة وصاروخ...

واذا كان عصرنا هذا، قد سمي بعصر الفضاء، لأن انسان هذا العصر قد كسر طوق الجاذبية الذي كان يشده الى الكوكب الأرضي، وحلّق في مجاهيل الفضاء، يتقصّى كواكبه ويكشف مجاهيله، فان الانسان القديم قد أعجزه هذا المجهول، فبنى من حوله وحول غيره، خرافات وأساطير، لم تكن في حقيقتها الا تعبيراً عن الرغبة في اكتشافه وسعياً وراء معرفة أغواره.

في تاريخنا، أخبار كثيرة عن خرافات وأساطير، لا يستطيع أحد أن يحدد ـ على الضبط ـ ماذا سيكون شأنها في العصور المقبلة، وهل تجسدها حقائق الواقع، أم تدعها احاديث خرافة تتقادم عليها السنون.

ما لنا ولها ؟! . . . ما شأننا وشأنها ؟! فنحن (في هذا الكتاب) لسنا مكلفين بأحقاب الدهور نتتبعها بالتحقيق، ولا ساعين وراء أسرار الغيب، نزيح عنها الستائر، بل نحن طلاب معرفة، وروّاد ثقافة، ورواة تاريخ.

من هنا ننطلق مع القارىء، في أخبار من عجائب التاريخ القديم، قد نجد فيها مع الخرافة متعة، وفي حنايا الاسطورة لذة، أو نعرف فيها شيئاً من آراء القدماء، وطرائقهم في البحث عن المعرفة، لا نبتغي تسفيهاً لرأي، أو مناقشة في علم، فحسبنا رواية الخبر في معرض الاطلاع.

روي عن الحكيم القديم جالينوس[1]، الذي مات بعد ميلاد المسيح بمئتي سنة

(١) جالينوس: ولد عام ١٣٠ وتوفي عام ٢٠٠ للميلاد: طبيب وكاتب يوناني. ولد في برجامون وعمل جراحاً لمدرسة المصارعين بها، بعد أن أتمّ دراسته في بلاد اليونان وآسيا الصغرى والاسكندرية ثم أقام بروما حيث ذاع صيته، فاختاره مرقص اوريليوس طبيباً لبلاطه، وينسب الى جالينوس خمسماية مؤلف اغلبها في الطب والفلسفة. وبقي من مؤلفاته الطبية ثلاثة وثمانون على الأقل. وقد أضاف الى ما سبقه من معارف طبية باكتشافاته التي توصل إليها بالتجريب وبتشريح اجسام الحيوان. وأقام الطب على نسقٍ يوافق نظرياته التي اكدت ان كل شيء مخلوق لهدف معلوم. وظل جالينوس حتى القرن السادس عشر مرجعاً مسلّماً به فضعفت روح البحث، مما أعاق تقدم الطب. ولأعماله في التشريح والفسيولوجيا اهمية خاصة، فبيّن ان الشرايين تحمل الدم لا الهواء. واضاف الكثير الى المعرفة بالمخ والأعصاب والحبل الشوكي والنبض. (الموسوعة العربية).

أنه كان يعتقد بأن الهواء الذي يغطي سماء الأرض، ليس هواءاً فارغاً، بل فيه مخلوقات حية، وكائنات مجهولة، وهو مأهول ومسكون.

وروي عن بلينوس الاكبر[1] العالم الروماني في التاريخ الطبيعي الذي عاش في القرن الاول للميلاد والذي يعتبره المؤرخون حجة في علم طبيعة الكون، أنّه قال اذا كانت الأرض والماء، تحتوي على خلق وساكن، فقد وجب ان يحتوي الهواء والنار على خلق وساكن.

لا أدري، ولا تدري انت أيها القارىء الكريم، كيف يمكن أن يكون في النار خلق وساكن، ولكن، هكذا قال عالم الطبيعة القديم.

ويذكر المؤرخ العربي ابو الحسن المسعودي المتوفى قبل ألف وأربعين سنة في كتابه «مروج الذهب» ان الخليفة العباسي هرون الرشيد خرج ذات يوم الى العيد ببلاد الموصل، وعلى يده باز أبيض، فاضطرب على يده، فأرسله، فلم يزل الباز يحلّق في الهواء، حتى غاب في الفضاء، ثم طلع وبان بعد الإياس من عودته، فاذا به يهوى وقد حمل شيئاً يشبه الحية أو السمكة، وله ريش كأجنحة السمك، فامر به الرشيد، فوضع في طست، فلما عاد من قنصه أحضر العلماء فسألهم: هل تعلمون ان في الهواء مخلوقاً وساكناً، فقال أحدهم يا أمير المؤمنين، روينا عن جدك عبدالله بن عباس، ان الهواء معمور بأمم مختلفة الخلق، وفيه سكان اقربها منا دواب بيض تقطن الهواء وفيه تفرخ، فيرفع الهواء الكثيف فراخها، ويربيها حتى تنشأ في هيئة الحيّات والسمك، لها أجنحة ليست بذات ريش، تأخذها بزاة بيض، وتكون بارمينية، فأخرج الطست

(١) بلينوس الاكبر: ولد عام ٢٣ وتوفي عام ٧٩ للميلاد. عالم من علماء النبات الرومان. مات مختنقاً عندما ذهب لرؤية بركان فيزوف أثناء ثورته. ترك كتاباً قيماً عن التاريخ الطبيعي (٣٧ جزءاً) وهو أشبه بموسوعة يتكلم فيها عن طبيعة الكون والجغرافيا وعلم الاجناس وعلم الحيوان وعلم النبات (استخدم النبات في علم الادوية) وتاريخ الفنون. وهذا دليل على سعة الاطلاع وتنوع المعارف مما أثار دهشة النقاد وأكسبه اعجابهم الشديد. (الموسوعة العربية).

اليهم، وأراهم الدابة، واجاز القائل[1].

وروى المسعودي أيضاً في «مروج الذهب» انه اخبره غير واحد من أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد، انهم شاهدوا في الجوّحيات تسعى كأسرع ما يكون البرق، وانها ربما تقع على الحيوان الارضي فتقتله، وربما يسمع لطيرانها في الليل، وحركتها في الهواء صوت، كنشر ثوب جديد، وربما يظن من لا علم له، أنه صوت ساحرة تطير، لها أجنحة من قصب[2].

ومن عجائب التاريخ القديم ما يروونه عن منارة الاسكندرية التي اختلف الرواة في من بناها، وبينهم الاسكندر المقدوني، وتوصف بأنها احدى عجائب الدنيا السبع، ومن أبرز ما كان فيها، صلتها بالشمس والهواء والفضاء. فقد ذكر المؤرخون انه كان على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره، وفيها تمثال قد اشار بسبّابته من يده نحو الشمس، حيثما كانت من الفلك، فعند إشراقتها الاولى ترتفع يد التمثال، مشيرةً بالسبابة الى الشمس، ثم تسير الشمس في الجو وتدور، فتسير وتدور معها يد التمثال وسبّابته حيث دارت، فاذا انخفضت وغابت أرخى التمثال يده، منتظراً صباح اليوم التالي، لمرافقة الشمس في مسيرتها. وهذا طبعاً قبل ثبوت العكس أي إن الأرض هي التي تدور وليست الشمس.

ولمنارة الاسكندرية حديث طويل أخذنا منه الآن ما يتعلق منه بالشمس والفضاء والهواء، تاركين للقارىء الكريم أن يتساءل معنا عن جراثيم الهواء التي يقتلها لهيب النار، وهي ـ بالطبع ـ مخلوقات حية، فهل يتضح في الزمن المقبل ان في النار والهواء ساكناً ومخلوقاً، ام يظل الحديث حديث خرافة يا أم عمرو.

(١) لسنا في مجال مناقشة صحة هذا الحديث المنسوب لعبد الله بن عباس، وإن كانت لوائح الوضع والكذب عليه ظاهرة فهذا كتاب أدب وثقافة، وليس كتاب تحقيق أو جرح أو تعديل.

(٢) ترى ألم يشاهد شيئاً منها احد من روّاد الفضاء في عصرنا الحاضر؟!!

مشروب الشاي
الخمرة المحللة

قامت حياة الانسان منذ بدء الخليقة الى يومنا هذا، على نوعين من الغذاء اليومي، هما الطعام والشراب، اللذان لا يستطيع الانسان أن يعيش بدونهما سوى أيّام معدودات!

لقد صرف الانسان غاية جهده وأقصى معرفته، ليصنع في كل يوم طعاماً جديداً يرفده بشراب جديد، حتى أصبحت أنواع المآكل والمشارب أكثر مما تعدّ، وأبعد من أن تحصى.

كانت بعض أعشاب الأرض اول عام حصل عليه الانسان... وكان أول شراب دخل جوفه... ومع تقدم الحياة البشرية، دأب الانسان على رفع مستوى حاجته الغذائية، فكان الخبز أول طعام مصنوع، صنعه الانسان من ثمار شجر الزان المجروشة، حيث مزجها بالماء وجففها بالشمس، ثم عمد إلى لحوم الحيوانات غير المفترسة أو السامّة فأكلها فجّة نيئة، ومع تقدمه في مضامير الزراعة واكتشافه النار، عمد الى المنتجات الزراعية والحيوانية فأكلها مقدّدة أو مطبوخة، أو مشوية، كما نوّع تحضيرها بخلطٍ مختلفٍ بين خضار الأرض وثمارها، وتابع سيره الطويل، على دروب التجريب والصقل والتطوير حتى آل أمر الطعام الى ما نعرفه اليوم من أشكال وألوان وأنواع، اختلف في طعمها المذاق، وتباينت من حولها الأذواق.

وكما صنع الانسان بطعامه، كذلك صنع بشرابه، فتفنّن بتحضيره وتلوينه واعداده. وصنع آلاف الأشربة، وجعل منها الساخن والبارد، والمهيّج

والمهدّىء والمصحي والمسكر، والمنبّه والمخدّر، والمشهّي والمهضم، والحلو والحامض، والمنعش والمخمل، كما جعل لكل منها اسماً ولوناً وطعماً، ينفرد به عن غيره. فكان حال الشراب كحال الطعام، أكثر من أن تعد أصنافه وألوانه، وأبعد من أن يحصى طعمه ومذاقه.

ويختلف حال الشراب عن حال الطعام، ببقاء الشراب الأول الذي دخل جوف الانسان أول مرة، (وهو الماء) في قمة الحاجة الغذائية اليومية، بل ظل هو الشراب المفضل المستساغ، والذي لا يستطيع ان يتخلى عنه الانسان.

وبرغم آلاف الأشربة المختلفة، فقد ظلّ الانسان مقبلا على ارتشاف الماء بكثرة حملت بعض المحققين على التأكيد بأن ما يستهلكه بنو الانسان من ماء الشرب يبلغ أضعاف ما يستهلكونه من جميع الأشربة الأخرى، مجتمعة، ومنفردة!

وإذا كانت نسبة استهلاك أنواع الأشربة، تختلف بين أمة وأمة، فان هنالك نوعين آخرين من الشراب، قد أقبلت عليهما البشرية اقبالا عجيباً، هما «الشاي» و«القهوة» اللذان احتلا المرتبتين التاليتين لمرتبة الماء، فكان الماء في المرتبة الاولى، وكان الشاي في المرتبة الثانية، وكانت القهوة في المرتبة الثالثة.

لا نعرف على التحقيق متى بدأ الانسان باستعمال مشروب الشاي، غير أن كتب الصين القديمة، قد أتت على ذكره، حوالي القرن الثالث للميلاد، فاعتبرته بديلاً للأنبذة القوية، ومعروف أن الشاي في الأصل، اسم صيني يطلق على شجرة أو شجيرة، كما يطلق الاسم نفسه على أوراقها، وعلى المشروب الذي يصنع من هذه الأوراق.

بدأت زراعة الشاي على نطاق تجاري في القرن الثامن الميلادي، ووصل الى اوروبة في القرن السادس عشر وعمّ شربه في أقطار آسيا وجميع البلاد العربية في أواخر القرن السابع عشر.

تُقطف وريقات الشاي باليد وهي يانعة طرية، وأفضلها الاوراق الرقيقة القريبة من البراعم، ثم تترك حتى تذبل، ثم تلفّ وتجفف وتشحن الى أنحاء الأرض. وأهم البلاد المنتجة هي الهند والصين وسيلان، واندونيسيا واليابان وفورموزا، وأجوده هو السيلاني ذو الورقة الطويلة الملفوفة بشكل رفيع، وهو على أنواع: الأحمر والأخضر، والأكرك، أما الأحمر ويسمّى أيضاً الأسود فيجري تخمير أوراقه مدة أربع وعشرين ساعة بعد اقتطافها، وأما الأخضر فتسخن أوراقه وتلفّ فور اقتطافها ويمتاز الأكرك بنكهة ناعمة، كما تمتاز ورقته السوداء برأس صغير أبيض.

ويحمل الشاي في عناصره «الكافئين» فيكون منبّهاً، كما يحمل خاصة القابض فيكون قابضاً، وتختلف طريقة تحضيره بين بلدٍ وآخر، إلاّ أن السائد في تحضيره هو القاء كمية قليلة من ورق الشاي فوق الماء المغلي، وبعدها يحلّى بالسكر وفقاً للطلب، أي في الابريق أو في كل قدح على حدة، ثم يُشرب ساخناً كما يشرب مبرداً أحياناً أخرى!

وفي البلاد العربية احتل مشروب الشاي مكانة أولية، وتفنن أبناء البلاد العربية بطريقة تحضيره وشربه، ولقد استعملت بلاد المغرب العربي الشاي الأخضر، مضيفة اليه أوراقاً صغيرة من نبات النعناع، وسمته «أتاي» تعريباً لكلمة THE الفرنسية، وجعلت له أقداحاً بلّورية كبيرة ملونة يمتلىء نصفها بالشاي وهو شديد السخونة حيث تتحلق الأقداح الحلوة حول ابريق فضيّ أو فخّاري أو صينيّ أنيق، يتربع على صينيّة فضيّة ذات أرجل صغيرة هذا اذا كان مستوى التحضير على درجة ممتازة، والا فيجري تحضيره بأباريق عادية، وكؤوس متواضعة، ويعتبر «أتّاي» المغرب أول حاجة يجب تقديمها للضيف.

أما في بلاد المشرق العربي، فالشاي الأحمر هو المرغوب السائد، وهو الذي يجري استهلاكه بشكل منقطع النظير، وإذا كانت بلاد العراق وشرقي الجزيرة العربية، تسميه «شاهي» وترغبه مغلياً مختمراً ليصبح لونه غامقاً

وطعمه قابضاً فان البلاد الشامية تؤثره صافياً زاهياً ذا لون عقيقي، يجمع الى صفاء اللون نكهة لطيفة المذاق بينما يشربه سكان غربي الجزيرة جارح الحلاوة باهت اللون.

ولقد كان للشاي في البلاد العربية ولا يزال، ذواقون معجبون، يتبارون في طريقة تحضيره وتقديمه، كما كان للجهاز المعروف باسم «سَمَاوَرْ» شأن يذكر رغم سيره الآن نحو الانقراض، وهو عبارة عن ابريق معدني بيضويّ أو كرويّ الشكل يقوم على قاعدة صغيرة مهوّاة، له في أسفله صنبور لصب الماء، وفي أعلاه فوهة واسعة، تمرّ به من الأعلى الى الأسفل على شكل اسطوانة معدنية مخروطية، تستهلك ربع حجمه الداخلي، فيصبح ما حول الاسطوانة مخصصاً للماء، وما ضمن الاسطوانة مخصصاً للفحم المشتعل، وبمرور تيار الهواء على الفحم يزداد اشتعاله... وهكذا حتى يبلغ الماء درجة الغليان. وليس أجمل من أن يكون هذا «السماور» نحاسياً زاهياً، أو فضياً لامعاً، يتربع على صينية كبيرة قد اصطفت حولها أقداح بلورية شفافة، لكل قدح صحنه الصغير الشفّاف، وملعقته البرّاقة الى جانب أباريق صغيرة أخرى، يجري نقل الماء المغلي اليها من السماور حيث يجلس «شيخ الشاي» ان صح هذا التعبير معتزاً بطريقة تحضيره، مفاخراً بما يحرص عليه من أناقة ونظافة وفنّ، فيقدم شايه الى ضيوفه، متمنياً أن يجد في شعر العرب شيئاً في الشاي، كذلك الشعر الذي قاله الأقدمون، وبينهم أبو نواس في الخمر والخُمار، وفي السُّكر والسَّكارى، ايماناً منه بأن شرابه هذا أجدر وأليق، ولقد سمعت أحدهم يرد على أحد ضيوفه حين لفت نظره إلى شدة غليان الماء في «السماور» قال له:

لا تغترر بصوته اذا علا ... حتى ترى البخار منه قد علا

ونستطيع أن نقول بأن للشاي في البلاد العربية أناساً مدمنين، وذوّاقين معجبين، يتحلّقون حول موائد الشاي، على أناشيد السرور، وأغاريد الطرب، بل أن معظم أصحاب الطرق الصوفية، كانوا يعتبرون الشاي خمرتهم

المحلّلة، يشربونها قبل القيام الى حلقات الذكر وبعدها، ولقد اشتهر في دمشق « ابريق الرشيدية » فكان يضرب به المثل للآنية التي لا تفرغ حتى تمتلىء، تماماً كما كان الحال في ابريق اتباع الطريقة الرشيدية الصوفية.

ولا يفوتنا أن نشير الى أن الشعب الانكليزي هو أكثر شعوب الأرض اهتماماً بالشاي وحباً لشربه، وخصوصاً عند الساعة الخامسة من بعد ظهر كل يوم، حيث تتكون لديهم جلسة هادئة حول الشاي تتربع معه على المائدة بعض علب « البسكويت » أو شيء من « الكاتو » وكأني بهؤلاء الانكليز قد جعلوا من شاي الساعة الخامسة موعداً لا يتخلف عنه أحد عصر كل يوم.

بالاضافة إلى هذا اشتهر الانجليز بتجارة الشاي وبحسن تصنيعه وباستهلاك كميات كبيرة منه بطريقة تقليدية معروفة.

ولعل من المفيد أن نشير الى أن مدينة لندن قد أصبحت في عام ١٨٣٠ مركزاً رئيسياً لتجارة الشاي، وتأسست في عام ١٨٣٤ « هيئة مبيعات الشاي بالمزاد » في قلب حي السيتي (أي لندن القديمة) وبقيت هناك حتى عام ١٩٧١ حين تم نقلها الى بيت السير جون ليون بالقرب من كاتدرائية القديس بولس، وبالرغم من أن الانجليز لم يتمكنوا من استنبات ورقة شاي واحدة من تراب الجزر البريطانية، الا أن سوق البيع بالمزاد لمادة الشاي في لندن هي الأكبر في العالم، والأضخم من نوعها، مع العلم أن هناك أسواقاً أخرى كبيرة تقيمها الدول المنتجة للشاي كأسواق كالكوتا في الهند وأسواق كولومبو وسيريلانكا وكينيا وملاوى وبنغلادش وجاكرتا...

وتُعتبر بريطانيا أكبر بلد مستورد للشاي في العالم فهي تشتري كميات تفوق ما تشتريه الولايات المتحدة الاميركية وكندا مجتمعة، وتبلغ نسبة تناول الشاي لدى البريطانيين خمسين بالمائة من جميع السوائل بما فيها الكحول، كما تبلغ سبعين بالمئة من بين جميع المشروبات الساخنة بينما تشكل نسبة القهوة ٢٥٪ فقط.

والمعلوم ان غالبية الكميات الداخلة الى بريطانيا تأتي عن طريق البيع بالمزاد أو عن طريق صفقات فردية ويتم تصدير ما بين ١١ و١٤ بالمئة من جميع كميات الشاي التي تدخل بريطانيا بعد تصنيعها وتوضيبها.

وبالنظر لمكانة بريطانيا ومركزية لندن كسوق لجميع أصناف الشاي، فان الأسعار العالمية تتأثر الى حد بعيد بما يتقرر فيها. ويأتي الشاي أساساً من الهند وبنغلادش وسري لانكا وموزامبيق والكونغو وزائير ورواندا وبوروندي والارجنتين والبرازيل والاكوادور والبيرو.

ويهتم الشارون بنوعية الاوراق والطعم ويتوقف اختيار طعم الشاي على خبرة هؤلاء الذين يتذوقون كل نوع منه بعد خلطه وتوضيبه مع حفظ خصائص كل نوع مهما قدم الزمن. ويتميز هذا النفر من الخبراء بحساسية أذواقهم وخبرتهم بحيث يحدد الواحد منهم الحقل الذي جاءت الاوراق منه والبلد والوقت الذي تمّ فيه القطاف وعما إذا كان الطقس ممطراً أم لا، خلال القطاف.

وتختلف ألوان ورائحة ومذاق اوراق الشاي من موسم الى آخر ويبقى على الخبراء تطويرها لتناسب الاذواق الكثيرة.

وتقوم أسواق المبيع بالمزاد في لندن كل يوم اثنين في قاعة المزايدة الرائعة في مركز الشاي. وهنا يجتمع ممثلو الشركات والسماسرة ليشتركوا بالمزادات.

ويقول أحد بائعي المزاد انه يبيع ما معدله مئة كيلوغرام من الشاي في الدقيقة وأنه استطاع بيع ١٢,٥٠٠ طن من الشاي خلال السنوات الأخيرة.

وبعد وضع الشاي في أكياس خاصة لوحظ أن الهدر قد خف كثيراً وكان مبدأ اختيار الطعم في الماضي يتوقف على ذوق من يتذوقه من خبراء الشركة غير أن سهولة المواصلات حالياً أتاحت لهؤلاء الخبراء زيارة الأسواق الخارجية والوقوف على أذواق الزبائن.

واكتشف هؤلاء أن الانكليز يفضّلون الشاي ذا المذاق الحاد واللون الداكن يشاركهم الاستراليون في ذلك بينما يفضّل الالمان الشاي الخفيف. ويتحول الاسكندنافيون من القهوة الى الشاي بدون إضافة الحليب بل اضافة الليمون الحامض في حين يتناول ٧٠ بالمئة من الاميركيين الشاي المجلد ـ أي البارد ـ ومن الملاحظ أن زبائن الشرق الأوسط يختارون أجود أصناف الشاي.

ويقول مدير مبيعات الشاي، جيم منـدى ان السويـديين والاوروبيين يفضّلون الشاي الاسود، وهناك شركة صغيرة تمزج الشاي بنسبة صغيرة مع عصير المشمش وتبيع كميات كبيرة منه لليابان.

ومن الملاحظ أيضاً أن عشاق الشاي يزدادون مع الوقت بمعدل ٣ بالمئة خلال السنوات الأربع الاخيرة.

هذا شيء عن مشروب الشاي صاحب المرتبة الثانية بين أشربة العالم.

مشروب القهوة ... بين الدين والمجتمع

بعد أن أتينا فيما سبق من هذا الكتاب على ذكر شيء من تاريخ مشروب الشاي بين أمم الأرض، نأتي الآن على ذكر شيء من تاريخ مشروب القهوة وما تعرض له من هزّات دينية واقليمية، كان لها شأن يذكر في تاريخ التطور الاجتماعي، ادّى في نهاية المطاف الى انتصار مشروب القهوة على الاشربة الاخرى، بحيث احتل هذا المشروب المرتبة الثالثة، بعد مشروبي «الماء» و«الشاي».

يصنع مشروب القهوة، من بذور شجرة البن، وهي شجرة صغيرة دائمة الخضرة، لها أزهار بيض عطرة، وأوراق لدنة ناعمة، وعندما تنضج تتحول إلى ثمار حمراء داكنة، يبلغ طول الثمرة بوصة واحدة، أي حوالي ٢,٥ سنتمتراً، فيها نواة مؤلّفة من بذرتين متقابلتين هما من حبّات البنّ.

على الرغم من أنّ بعض العرب يصرّون على أن بلاد الجزيرة العربية، هي موطن البنّ الأصلي، فان هنالك من يؤكد بأن بلاد الحبشة، قد عرفت البن، قبل غيرها من الأمم، وصنعت منه مشروب القهوة البدائي، منذ القرن الميلادي العاشر، بينما لم يُعرف في البلاد العربية كمشروبٍ سائغ الا في القرن الخامس عشر[1].

وتتحدث بعض الاساطير العربية، عن كيفية شيوع القهوة في بلاد العرب، فتقول، ان بعض الرعاة من قبيلة «عنيزة» قد تركوا قطيعهم على سفح جبل

(١) الموسوعة العربية الميسرة ص ٤٠٦.

شمّر من أرض اليمن، ليرعى الاعشاب النابتة فيه، وما راعهم الا عزوف الماعز عن النوم، طوال تلك الليلة، اذ بقيت بين الصخور تمرح وتعربد بشكل غير مألوف، مما حمل الرعاة على الاعتقاد بأن في هذا النبات الداكن الخضرة الذي هو شجيرات البن، مادة منبّهة، تبعث النشوة، وتشيع في النفس السرور، فعكفوا على ذلك النبات، وشاركوا الماعز فيه، فاحسوا في نفوسهم بشيء مما حسبوه وظنّوه!

ويقول القائلون: ان الرغبة بتذوق طعم البن قد نشأت منذ ذلك اليوم، ونشأت معها طريقة خاصة بصنعه وتحضيره، وبعد ذلك انتقلت زراعته الى الحبشة التي تواجه سواحل اليمن، وحينما اصبحت مكة المكرمة مركزاً تجارياً لتصديره، كانت زراعته قد بدأت بالانتقال الى أقطار افريقية وأميركية، وانتشرت في المناطق الاستوائية بنصفي الكرة الارضية، فكانت الاهمية التجارية للبن الليبيري، وبنّ الكونغو وغيانا، بينما احتلت البرازيل، المرتبة العالمية الاولى لتصديره منذ أكثر من خمسين سنة. على أنّ النوع الذي تنتجه منطقة (مخا) من اليمن المعروف بالبن العدني ثم البن الهرري قد ظلَّ من أجود الأنواع، وكانت كذلك أنواع اخرى تنتجها جاوة وسومطرة وكولومبية.

ويقال ان العرب كانوا أول من نقل القهوة الى البلاد الاوروبية حيث حمل التاجر العربي بضاعته من البن في منتصف القرن السابع عشر إلى أسواق البندقية في ايطاليا، والى أسواق مرسيليا في فرنسا، ومنها الى البلاد الاوروبية والى بريطانيا التي دخلتها القهوة أول مرة عام ١٦٥٠ ميلادية.

وتعرّف الاتراك على القهوة في البلاد العربية التي فتحوها، وهم نقلوها أيضاً الى بعض أقطار أوروبة التي كانت خاضعة لسيطرتهم، ومما يذكر في هذا الصدد ان قائد الجيش العثماني الذي دخل الى فينا عام ١٦٨٣ م واسمه «قرة مصطفى» قد أمر بفتح حوانيت لشرب القهوة، التي عرفت فيما بعد باسم «القهوة التركية» في جميع الاقطار الاوروبية.

وقامت ضد مشروب القهوة، ضجّات دينية صاخبة في العالمين الاسلامي والمسيحي، وظل القسم الاعظم من الورعين المتدينين عازفاً عن شربه حتى ان رجال الكنيسة الايطاليين قد عدُّوه مشروباً ملعوناً، فلم يتذوقوه، فظلّت الحرب قائمة، حتى انتصر مشروب القهوة، فأصبح هو الشراب الشائع السائغ إلى جانب الشاي بين جميع المسلمين، بينما قام البابا «كليمانت» الثامن بتعميد القهوة تحليلاً لشربها فأصبحت شراباً سائداً في معظم أنحاء أوروبة، ولقد انتشرت القهوة جزئياً في أميركا الشمالية سنة ١٦٦٨ م، الا أنها انتشرت انتشاراً كاملاً، عقب «مظاهرة الشاي» المعروفة التي جرت في بوسطن عاصمة ولاية «ماساشوستس» عام ١٩٣٨.

يختلف تحضير مشروب القهوة في بلدٍ عن آخر اختلافاً كبيراً حيث يجري تحميص البنّ على ثلاثة أحوال مختلفة، الاسمر الخفيف، أو الاسمر الداكن، أو الاسمر المحروق، ثم يجري طحنه مسحوقاً ناعماً أو مجروشاً دقيقاً، حسب الطريقة المختارة.

أما طريقة صنع القهوة العربية، فتتلخص في غلي الماء مع البن المسحوق مضافاً إليه كميات كبيرة من حبّ الهال المجروش، ثم يجري تخميره[1] على طريقة خاصة، يصبح بعدها شراباً سائغاً عند العرب، خصوصاً عرب الجزيرة العربية الذي يفاخرون الأمم الأخرى. بنكهة وعذوبة قهوتهم التي لا يستعذبها كثيرون من غير العرب، لخلوها من حلاوة السكر أو أية تحلية أخرى.

ولتقديم القهوة العربية، ولشربها عادات وتقاليد محترمة، لا يجوز لأحد ان يتجاوزها، فهي أول ما يقدم للضيف، ترحيباً وتكريماً اذ يتقدم الساقي، حاملا دلّته الصفراء الزاهية بيده اليسرى، قابضاً بيده اليمنى على عدد من فناجين القهوة العربية المميّزة، فيصب للضيف أو للضيوف، رشفةً صغيرة،

(١) التخمير في بلاد الشام والعراق. وقد يخمر لليوم الثاني وهكذا ويكون الهيل قليلاً. وأما في الجزيرة فيغلى قليلاً قليلاً ويكون الهيل كثيراً أو الزعفران أو القرنفل معه. ولا يترك سوى ساعات قليلة.

يحول كبر الفنجان فيها، دون تأثر اصابع الضيف بسخونة الشراب، فاذا ارتشفها الضيف، سكب له الساقي رشفةً أخرى، ويظلّ يتابع السكب له، حتى يهزّ الضيف فنجانه هزةً صغيرة، يتوقف بعدها الساقي عن السكب، والا فيظلّ يسكب...

أما في بقية البلاد العربية، فان مشروب القهوة الاكثر شيوعاً هو ذلك الذي يطبخ فيه البن الناعم بغليه بالماء مع تحليته بالسكر على ثلاث درجات مختلفة، يحدّدها الشارب. بقوله «سكر قليل» أو «سكر وسط» أو «سكر زيادة».

وفي بلاد اليمن يعتبر مشروب القهوة السائد، هو ذلك الذي يصنع من تحميص وغلي قشور البن لا من تحميص وغلي بذور البن ذاته، هذا هو المفضل عندهم، أما حبوب البن (أي البذور) فتصدّر الى الخارج للتجارة.

وفي ايطاليا يستعمل مشروب القهوة من مسحوق البن المحروق، ويجري تحضير القهوة في أوروبا واميركا على طريقة غلي المسحوق الناعم بالماء ثم بتصفيته ليكون راشفاً، وقد تم اخيراً استخدام آلات بخارية ضاغطة، تعصر خواصّ البن في عملية حرارية شديدة يمرّ عليها الماء المغلي، بحركة أوتوماتيكية، يخرج منها مشروب القهوة زاهياً صافياً محتفظاً بجميع عناصره، حيث يضيف الشارب الى فنجانه ما يرغبه من السكر لتحليته، ويشرب الاوروبيون والاميركيون مشروب قهوتهم هذه مع أفطار الصباح، مضافاً اليه لبن الحليب، أو يشربون مع الحليب شاي الصباح، هذا فضلا عن استمرار شرب الشاي أو القهوة، كلما راق لهم ذلك، في أي ساعة من ساعات الليل والنهار، ويمتاز مشروب القهوة باحتوائه على مادة «الكافئين» التي تمتاز بقدرتها على الانعاش وتخفيف التعب، ومعالجة الصدمة، وذات الرئة، على أن الافراط في شربها يسبب سرعة التهيّج والكآبة وعسر الهضم.

لقد صُنعت القهوة أول ما صنعت بالحوانيت، لا في المنازل وقد سميت

هذه الحوانيت المتسعة فيما بعد بالمقاهي، حيث اعتاد الناس أن يجتمعوا فيها على شرب القهوة، فاجتمعوا من حيث لا يشعرون على الكلام والثرثرة ونشر الشائعات ولعب الميسر، والمناقشات الادبية والسياسية، ففرضت الحكومات قيوداً على المقاهي، باعتبارها اماكن لاجتماع السياسيّين الساخطين، ولقد اشتهر مقهى «ويل» في لندن بأنه ملتقى الظرفاء والشعراء والادباء وأصحاب المواهب، مثل جونسون وايديسون وشريدان وغيرهم، حتى لقد قيل بأن مقاهي فرنسة كان لها أثر كبير في تطور الأدب والمسرح وتقدمها، بل أن هنالك من يعتبر ظهور المقاهي في بلاد العالم، بأنه كان طليعة للاندية الحديثة، التي أصبح لها شأن كبير في الحياة الاجتماعية!

الاسم العلمي لحبوب او بذور البن هو (كافيا ارابيكا) أي (قهوة عربية) وهذا يدل على أن العرب هم الذين تولوا نقلها الى أنحاء الأرض، وتحتاج زراعة البن الى طقسٍ حار رطب مع مطر بمعدل ٥٠ بوصة وتربة غنية، ويزكو البن على المنحدرات حيث التربة من أصل بركاني ويمكن زراعته في مستوى البحر، وتنتج اصنافه الجيدة فوق ارتفاع ٤٥٠ متراً عن سطح البحر. يضرّه الصقيع، وتتوالد النباتات من البذور، وتزرع بجانبها نباتات أخرى أطول منها لضبط كمية ضوء الشمس التي تصل إلى أشجار البن، ولوقايتها من عوامل الطبيعة. تنتج شجرة البن اقصى محصولها بين السنة الخامسة والعاشرة من عمرها وتستمر حتى الثلاثين سنة التالية. وأسفرت الابحاث عن امكان صنع مشتقات من البن كعلف الماشية والكحول وزيت الوقود والكافيين والجلسرين، وفي مصنع (سان باولو) بالبرازيل ينتجون نوعاً من اللدائن يسمى «الكافيليت» وتؤثر الحرارة على الزيوت الاساسية التي تعطي البن طعمه ورائحته[١].

وقد أظهرت آخر البحوث العلمية أن الذين يدمنون شرب القهوة

(١) الموسوعة العربية الميسرة.

يواجهون اعراض الحرمان. وبامكان الأطباء التعرف على أعراض الحرمان هذه « إكلينيكياً » أو سريرياً .

وتعد مادة الكافئين من أكثر العقاقير شيوعاً بين الناس، والمعلوم أن فنجان القهوة العادي يحتوي على مئة ميليغرام من الكافئين، بينما يحتوي فنجان الشاي في المتوسط على سبعين ميليغراماً . ولا عجب في القول ان « ادمان » الكافئين هو حالة طبيعية معروفة تماماً، ولها أعراض . . . منها سرعة الانفعال والأرق. وإن البحث العلمي الجاري حالياً، هو « أثر » الحرمان من الكافئين. أي ماذا يحدث عندما يحرم الشخص الذي تعوّد شرب القهوة عدة ساعات منها ؟!

قام خمسة من أعضاء مركز دراسات علم النفس في احدى الجامعات مؤخراً بإكمال التجارب التي أجريت على مجموعة كبيرة من الطلاب، بعضهم من المفرطين في شرب القهوة، وبعضهم من لا يشرب أكثر من فنجانين في اليوم الواحد، وبعضهم ممن يشربون أقل من فنجانين في اليوم الواحد، وبعد ذلك أعطي كل مشترك في التجربة شراباً من عصير الفاكهة يحتوي: أما على ثلاثماية ميليغرام من الكافئين، أو يحتوي على مادة مموهة لا أثر لها ولا فعالية. وفي هذه المرحلة من التجربة، لم يكن أي متطوع مشترك في التجربة، أو أي من مطبّقي التجربة يعلم ما يحتويه الشراب المقدم لكل شخص، وبعد ثلاثين دقيقة اجريت عملية قياس توتر الاعصاب مرة ثانية على كل مشترك، كما جرى قياس ردّ الفعل لدى كل فرد منهم.

واتضح أن ردّ فعل الذين تعاطوا الكافئين عن طريق شرابهم كان أسرع من رد فعل الباقين ممن لم يتعاطوا الكافئين. وخلص الخبراء إلى القول: إن مادة الكافئين مرتبطة بتغيير مستوى التوتر العصبي لدى المتعودّين على شرب القهوة بانتظام، وتشير هذه النتائج إلى أن المستوى العالي للتوتر العصبي، حدث عند أولئك الذين يفرطون في شرب القهوة، نتيجة لحرمانهم منها[1].

(١) مجلة « القدس » بيروت عدد يناير ١٩٨٢ .

الرسالة البريدية... على دروب التاريخ

حكاية « رسالة البريد » حكاية قديمة، بدأت مع وعي الانسان وضربه في آفاق الكون، بحثاً عن الرزق والكسب، أو سيراً في ركاب الفتح والحرب حيث يفارق الفرد أهله وبلده، ليقصد بلاداً بعيدة، يصعب معها عليه أن يتسقط أخبار أهله، ووطنه، إلاّ عن طريق مسافر آخر، يحمّله رسالة شفهية أو خطّية، ويتسلم منه خبراً مرويّاً أو مكتوباً.

هكذا كان يتصل قدماء بني الانسان الضاربين في آفاق الأرض، بأهلهم وذويهم، أو مع معارفهم وعملائهم. بل مع أعدائهم وحلفائهم، حتى أن الحكام والزعماء، والنبلاء والكبراء، كانوا يتراسلون مع بعضهم بعضاً بواسطة رسول خاص قد لا يحمل سوى رسالة واحدة، يقطع بها مسافات شاسعة بعيدة كي يوصلها الى حاكم وأمير، أو إلى نبيل وكبير.

وبالنسبة لنا، نحن العرب، كان منادي الامير يطوف في عهد الفتوحات الاسلامية الاولى منادياً على الناس في الطرقات، ومعلناً عن موعد سفر البريد إلى جيش الفتح، فيتسابق ذوو الجنود وأهلوهم إلى إيداع رسائلهم لدى حامل البريد، الذي يتولى نقلها، بأمر الأمير الى جنود الفتح المحاربين.

كان نقل الرسائل البريدية في تلك العهود يستغرق الأيام والأسابيع والشهور، بحسب البعد والقرب، وبحسب وسائل المواصلات التي لم تكن تزيد في شيء عن السير على الأقدام، أو ركوب الخيل والابل، أو استعمال المراكب الشراعية عبر البحار.

أول من تنبّه لأهمية نقل البريد وتنظيمه، مؤسّس الدولة الأمويّة، معاوية ابن أبي سفيان، الذي أنشأ ديواناً خاصاً للبريد. تابعه على تنظيمه ورفع مستواه، الخليفة الأمويّ الخامس، عبدالملك بن مروان. فكان البريد الاسلامي مع بدء النصف الثاني للقرن الهجري الاول، بريداً منتظماً. قُسّمت فيه مسافات الطرق البعيدة والقريبة، ضمن الدولة الاسلامية الى مراحل متساويةٍ مدروسة، يتناوب فيها حَمَلة البريد بين مرحلةٍ ومرحلة. بحيث لا يتسنّى لتعب السير المتواصل، أن ينال من حامل البريد ومطيّته، أو أن يفرض عليه البطء واضاعة الوقت، اذ سرعان ما يتلقف البريدَ حاملٌ مستريحٌ آخر. يحمله على مطيّة سريعة مرتاحة الى المرحلة التالية. وهكذا... حتى يصل البريد بأقصى سرعةٍ ممكنة، في حدود الوسائل المتوفرة، الى مكانه المقصود.

وتطوّر تنظيم البريد في بلاد العالم الاخرى، على نفس الشاكلة والاسلوب وتوسّعت دول الشرق والغرب، في تبادل التعاون لتنمية الخدمات البريدية، وتطورت وسائط نقل البريد بين الاعتماد على الخيل، وعلى العربات المقفلة، التي كانت تنقل الركاب وتسير على الطرق العادية تحت الحراسة المسلّحة، وبين الاعتماد على قطر السكك الحديدية، والبواخر ثم انتقل الأمر إلى السيارات، ثم إلى الطائرات بحيث أصبح في مقدور أي انسان أن يبعث برسالته من أقصى الأرض الى أدناها دون أن يكلّفه ذلك أي جهد، سوى شراء طابع بريد صغير بقيمة زهيدةٍ جداً، يلصقه على مغلف الرسالة ويطمئنّ معه إلى أن رسالته ستصل الى الجهة المقصودة، بسرعةٍ مذهلةٍ ونظامٍ دقيق، فكيف كان هذا التطور الكبير، وكيف نما هذا التعاون الانساني؟ وكيف تتابع السير على دروبه الطويلة؟!

عرف العرب والفرس والرومان، نظام البريد كأداةٍ لخدمة الحكومة حتى القرون الوسطى، ثم نشأت مؤسّسات فردية لتأدية الخدمات البريدية، ما لبثت أن ألغيت، وكانت انكلترة أول دولة اعتمدت النظام البريدي، في أوروبة،

حيث أنشأته عام ١٦٥٧ م، وبعد حوالي مئتي سنة ظهرت فكرة إلصاق الطوابع على مغلفات الرسائل أي في عام ١٨٣٩، وانتقل نظام طوابع البريد الى الولايات المتحدة الاميركية عام ١٨٤٧، وفي سنة ١٨٤٣ اعتمدت مدينة زوريخ نظام الطوابع وتبعتها البرازيل في العام نفسه، وبعد عام ١٨٥٠ انتشرت الطوابع في جميع أنحاء العالم المتحضّر.

وبعد الحرب العالمية الاولى، أي في عام ١٩١٨، بدأ استعمال الطائرات لنقل البريد على نطاق ضيق، لكنه نما بعد ذلك مع نموّ الطيران المدني المنظّم، وأصبح في عصرنا الحاضر الوسيلة الأنجح لنقل البريد، مع ملاحظة أن البريد لم يعد قاصراً على نقل الرسائل والخطابات، بل تعدّاهما الى نقل الطرود البريدية، والصور والبطاقات المكشوفة، ووثائق العلاقات التجارية والثقافية والاعلامية بل أصبح ينقل الحقيبة الدبلوماسية التي أعفيت بشروطٍ معينةٍ من التفتيش، كما نشأ نظام خاص بحاملي حقائب البريد الدبلوماسي الذين يسافرون الى السفارات التابعة للدولة في الخارج، بدلاً من استخدام وسائل البريد العادية.

أول خدمة للبريد الجويّ، كانت عبارة عن رحلات غير منظّمة بين مدينتين انكليزيتين عام ١٩١١ م، وأول طائرة حملت البريد الجوّي في الولايات المتحدة الاميركية، طارت بين جاردن سيتي وجامايكا ١٩١١، وفي عام ١٩١٩ بدأ البريد الجوّي بين لندن وباريس ولم يبدأ تسيير الطرود البريدية الجوية بينهما الا عام ١٩٢٢.

أما أول بريد جوّي منظم في الولايات المتحدة الاميركية، فهو الذي تأسس عام ١٩١٨ بين مدينتي نيويورك وواشنطن، وفي عام ١٩٢١ قام بين نيويورك وسان فرنسيسكو حيث كان الطّيران في النهار فقط، ويرجع تنظيم الخدمة البريدية في الليل والنهارمعاً الى عام ١٩٢٤.

ولم يبدأ البريد الجوّي المنظم بين أوروبة والولايات المتحدة عبر المحيط الاطلسي الا عام ١٩٣٩ ، ثم اشتمل بعد ذلك تدريجياً على بقية أنحاء العالم . حيث كان البريد قبل ذلك ينقل في السفن عبر البحار .

كانت أول محاولة دولية لتنظيم تبادل الخدمات البريدية على نطاق عالمي هي التي جرت على يد « لجنة البريد الدولي » التي اجتمعت في باريس عام ١٨٦٣ بحضور مندوبين عن خمس عشرة دولة أوروبية وأميركية ، غايتها التقريب بين اتفاقات البريد الثنائية التي كانت تعقد بين دولة وأخرى ، ثم اتفقت اثنتان وعشرون دولة ـ بينها مصر ـ في مؤتمر دولي عقد في برن عام ١٨٧٤ على إنشاء « اتحاد البريد العام » للتغلب على الحواجز التي تقيمها الحدود القومية ، في وجه التبادل الحرّ للبريد ، وفي عام ١٨٧٨ أطلق على هذا الاتحاد اسم « اتحاد البريد العالمي » الذي اتسع عدد الدول المنتمية اليه فيما بعد ، وكان من أغراضه العمل على تنظيم وتحسين الخدمات البريدية المختلفة ، وإنماء التعاون الدولي في هذا الميدان ، ولقد انبثق عن اتحاد البريد العالمي مؤسسات فرعية ، هي :

« مؤتمر البريد العالمي » ويجتمع مرة كل خمس سنوات .

و« لجنة التنفيذ والاتصال » وتعقد دورة واحدة كل سنة ، وتتألف من عشرين عضواً ينتخبهم المؤتمر على أساس جغرافي عادل .

و« اللجنة الاستشارية للدراسات البريدية » وقد أنشأها مؤتمر أوتاوا عام ١٩٥٧ ومهمتها تقديم الآراء والدراسات في المسائل الفنيّة والاداريّة والاقتصادية .

و« المكتب الدولي » وهو الذي يقوم بمهمات الأمانة العامة الدائمة لاتحاد البريد العالمي ، ويقوم بدور مركز التجميع لتسوية الحسابات المتعلقة بخدمات البريد الدولية . ومقرّه الدائم في برن عاصمة سويسرا .

وتسهر لجان « اتحاد البريد العالمي » على تنظيمات العمل مع هيئة الامم

المتحدة والمنظّمات الدوليّة الأخرى[١] .

وهكذا تعاون بنو الانسان منذ القديم ولا يزالون يتعاونون حول تبادل وتنمية الخدمات البريدية التي أصبحت حلقة هامة من حلقات التعاون الأكبر في مضامير الحياة الانسانية الشاملة .

وقصة تاريخ « طوابع البريد » قصة طريفة كان للمرأة فيها نصيب وافر نسجل منها في هذه القطوف ما يلي :

ـ أول سيدة ظهرت صورتها على طابع البريد كانت الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا وقد صدر هذا الطابع بتاريخ ١٨٤٠/٥/٦ م .

ـ في عام ١٩٠٣ ظهر أول طابع بريد يحمل صورة امرأة من عامة الشعب (أي ليست ملكة) وكان يحمل صورة (مارتا واشنطن) زوجة جورج واشنطن .

ـ وكانت بوليڤيا احدى الدول السبّاقة لتكريم المرأة حيث أصدرت طابعاً بريدياً يحمل صورة احدى الثائرات البوليڤيات ضد الاحتلال الاسباني وتدعى « لوليفاريا سالفارينا » تلك التي واجهت حكم الاعدام بشجاعة نادرة .

ـ وفي البورتغال ظهر طابع بريد يحمل صورة سيدة برتغالية تدعى (ألميدا) وكانت صاحبة مخبز فاغتالت سبعة من جنود الاستعمار الاسباني سعياً وراء حرية بلادها . . .

ـ وفي امارة (موناكو) ظهرت صورة العالمة « مدام كوري » على أول طابع بريد يحمل صورة امرأة .

ـ وفي المانيا ظهرت صورة السيدة (فلورانس فايتخبيل) على طوابعها تخليداً لذكرى هذه المرأة التي قدمت أجلّ الخدمات في حرب القرم .

ـ وفي ايطاليا كان أول طابع بريد يحمل صورة امرأة قد ظهر لسيدةٍ

---

(١) « الموسوعة العربية الميسرة » .

اسمها (كريويرة دي سلفيا) التي أحبّها (غاريبا لدي) احد زعماء ايطاليا لأنها موصوفة بالشجاعة والجهاد الوطني .

- وفي اليونان كان أول طابع بريد يحمل صورة امرأة . هو ذاك الذي كان لسيدةٍ (لارسكارنيا) زوجة القبطان(بوبوليس) لأنها ابلت بلاءاً حسناً في المعارك التي خاضتها اليونان ضد تركيا .

- وفي مصر ظهر عام ١٩١٤ أول طابع بريد يحمل صورة امرأة . وكانت صورة « كيلوباترة » . وقد صدر ضمن مجموعة من الطوابع السياحية . وبعد ذلك ظهرت صورة « نفرتيتي » على طابع بريد مصري عام ١٩٤٧ ، ثم ظهرت عام ١٩٦٠ صورة (الملكة ايزيس) بمناسبة الدعوة الى انقاذ معبد فيلة ، والنساء الثلاث المذكورة هي صور ملكات حكمن مصر في العصر الفرعوني .

العصا ... رافقت تاريخ الإنسان !

العصا ، رفيقة عمر الانسان ، وخدينة أجياله المتتابعة ، وأجناسه المتنافرة ، فمنذ أن دب الانسان على هذه الأرض ، دبت معه عصاه ، ومنذ أن فتح عينيه على نور الحياة ، رأى أن لا مندوحة له عن العصا ، يصد بها عن نفسه هجمات الوحوش المفترسة ، ويستعين بها على سلوك الدروب الموحشة ، ويصنع منها أدوات الحرب والسلم ، ووسائل العون على حاجات الحياة ، ولقد كانت العصا مع الحجر ، بدون شك أو ريب ، أول ما صنعه الانسان من آلة ، وأول ما اعتمد عليه من وسيلة .

والغريب ، أن هذه العصا ، لا تزال منذ مئات ألوف السنين ، بيد الانسان ، يصقلها ، ويهذّبها ، ويطوّرها ، ويصنع منها العديد من الاشكال ، والاحجام ، والالوان والاجناس ، فمنها الغليظ ، ومنها الرفيع ، ومنها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها الخشب ، ومنها الخيزران ، ومنها الفضة ومنها الذهب ، ومنها ما يصنع من المعادن المختلفة ، بحسب ماتدعو الحاجة او تستوجب المصلحة .

وفي عصرنا الحاضر ، نرى العصا متمتعة بمكان الصدارة ، إلى جانب تمتعها بجميع الأمكنة الأخرى ، ولقد مرّ وقت طويل ، كانت فيه العصا من مستلزمات اللباس الرسمي والدبلوماسي . في بريطانيا وفرنسا ، ومعظم البلاد الاوروبية ، بحيث كان لزاماً على أفراد الطبقة العليا من المجتمع الاوروبي ، ان يرتدوا في المناسبات الرسمية ، لباساً معيناً ، هو عبارة عن طقم يسمى « السموكن » أو « البونجور » وله قبعة سوداء ذات شكل مميز ، اضافة الى

قفازين حريريين، ترافقهما عصا أنيقة دقيقة الرأس محدودبة المقبض، وبدون هذه العصا، لا يكتمل « بروتوكول » اللباس، ولا يتسنى للرجل ارتياد الحفل الرسمي.

ونرى حتى الآن، أن قائد الجيش الأعلى، عند معظم الدول لا يزال يعتز بحمل قضيب صغير أنيق ملمع، يطلق عليه اسم « عصا المارشالية » كما أن « المايسترو » وقائد الاوركسترا الموسيقية لا يستطيع أن يقود العازفين الا بعصاه الصغيرة اذا كان العزف في الصالات أو « الاوبرات » والا بعصاه الضخمة ذات الرأس الكبير الموشى بمعدن الفضة حين تكون فرقة العزف فرقة من الجيش في موكب رسمي أو عسكري.

والعصا، لها عند الناس كافة ـ كما قلنا ـ تاريخ عريق، ولها عندنا نحن العرب، بشكل خاص تاريخ حافل، دونته بطون الكتب، واثبتته مقالات الأدباء، وحفلت به قصائد الشعراء.

واذا كانت التوراة، كتاب العهد القديم المقدس، هي أقدم مصادر التاريخ المكتوب لجميع البشر، فان التوراة نفسها، قد جعلت للعصا شأناً ملحوظاً في يد موسى النبي عليه السلام، ففي أكثر من مكان من التوراة، ورد ذكر عصا موسى، وفي مطلع الاصحاح الرابع من سفر الخروج، جاء في التوراة ما يلي:

« فقال له الرب ـ يخاطب موسى ـ ما هذه في يدك؟ فقال عصا، فقال اطرحها الى الأرض، فطرحها الى الأرض فصارت حية، فهرب موسى منها، ثم قال الرب لموسى، مدّ يدك وامسك بذنبها، فمد يده وأمسك به، فصارت عصا في يده، لكي يصدقوا انه قد ظهر لك الرب اله آبائهم، اله ابراهيم، واله اسحق، واله يعقوب ».

ولقد وردت قصة عصا موسى أيضاً في القرآن الكريم، في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى في سورة طه:

﴿وما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هِيَ عَصَايَ، أَتَوَكَّأُ عليها، وأَهُشُّ بِهَا علىٰ غَنَمِي، ولي فيها مآرب أخرى، قال: ألقِهَا يا موسى، فألقَاهَا فإذا هِيَ حيّةٌ تَسْعَى، قال خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ، سنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ (١).

وفي أدبنا العربي الشيء الكثير عن تاريخ العصي والمخاصر والقنا، وفي هذا قالوا ان خطباء العرب كانوا يخطبون بالمخاصر، والمخصرة هي عصا كالسوط، يُتوكأ عليها، وقالوا كانت المخاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسهم، ولذلك قال الشاعر:

في كَفِّهِ خَيْزَرانٌ، رِيحُهَا عَبَقٌ ... بِكَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

وقال آخر:

إذا اقتسمَ النّاسُ فضلَ الفَخارِ ... أَطَلْنا على الأرض ميلَ العَصَا

وقال معن بن أوس، وهو يهدد أبناء ثور:

فَلاَ تُعْطَى عَصَا الخُطَباءِ فيهِمْ ... وقَدْ تكفي المقادةَ والمقالاَ

وكان النبي محمد عليه الصلاة والسلام يعتمد على العصا والمخصرة، وكان مسواك النبي وعصاه، مع عبد الله بن مسعود، وكان إذا وقف للخطابة، خطب بالقضيب، وعلى ذلك كان الخلفاء، وكبراء العرب من الخطباء.

وفي احدى الغزوات وقف النبي يسوّي الصفوف وبيده المخصرة، وقد دفع بها أحد أصحابه، فقال له لقد أوجعتني يا رسول الله، فأقدني، أي اعطني حقي منك، فكشف النبي ﷺ له عن بطنه، فاحتضنه الرجل وقبل بطنه.

وكان عمر بن الخطاب يكاد لا يفارق عصاه، وكان يسميها « الدرّة ».

واعتزّ عمر بن سعد أمام عمر بن الخطاب، حين عاد من عمل في حمص وليس معه سوى جراب واداوة وقصعة وعصا فقال للخليفة، معي جرابي فيه زادي، ومعي أداوتي أحمل فيها مائي لشرابي، ومعي قصعتي أغسل فيها ثوبي،

(١) سورة طه ـ الآيات ١٧ ـ ٢١.

ومعي عصاي أن لقيت بها عدواً قاتلته، وإن لقيت حيّة قتلتها، وما بقي من الدنيا، تبع لما معي.

وتقول العرب في مديح الرجل الجلد «ذلك الفحل لا يقرع أنفُه» ذلك لأن الفحل اللئيم يُضرب أنفه بالعصا.

وعندما عيّر كفار قريش أبا سفيان لأن ابنته أمّ حُبيبة تزوجها النبي بغير إذنه، قال لهم عن النبي: «ذلك الفحل لا يُقرع انفه».

وكان احتفاظ العربي بعصاه وحرصه عليها، مدعاة لفخره واعتزازه، وفي هذا قال حميد بن ثور:

اليوم تنتزع العصا من ربِّها ... ويلوكُ ثنيَ لسانِه المنطيقُ

وكانوا يقولون في معرض الذم: «فلان ضعيف العصا» وفي هذا قال البُعيث:

وانت بذات السدر من أمّ سالمٍ ... ضعيفُ العصَا مستضعفٌ متهضّمُ

ويمدحونه فيقولون «فلان صلب العصا» وفي هذا قال الراجز

«صلب العصا باق على اذاتها»

وتفنن العرب في الحديث عن تفاريق العصا، وما يجوز فيها من المنافع والمرافق، فالعصا عندهم تقطع ساجورا، وهو يقطع خشبة تعلق في عنق الكلب، والساجور يصير أوتاداً، ويفرق الوتد فتصير كل قطعة شظاظا، أي خشبة عقفاء تدخل في عروتي الجوالق.

وسئل أحدهم عن معنى قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام في العصا:

﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ فقال لست أحيط بجميع مآرب موسى، ولكنني سأنبئكم جملا تدخل في باب الحاجة الى العصا، من ذلك أنها تُحمل للحيّة والعقرب والذئب والفحل والهائج، وَيَتَوَكَّأ عليها الكبير الدانِق، والسقيم المدنف،

والاقطعُ الرِّجل، والاعرج، فانها تقوم مقام رِجلٍ اخرى، والعصا تنوب للاعمى عن قائده، ويستعملها القَصّار والدَّبّاغ في صنعتهما، وكذلك تكون محراكاً للتنور، وسلاحاً لراعي الغنم، ولكلّ راكب في مركبة وقد يحملها من طرفيها رجلان، يحملان بها الحِمْل الثقيل، (كما هو الحال الآن في افريقية)، وتكون ان شئت في حائط، وان شئت ركزتها في الفضاء وجعلتها قبلة وان زدت جعلت منها عُكّازاً ورُمحاً وسَوْطاً وسلاحاً.

وكان العرب يعيبون على الرجل اذا لم يكن معه عصا ويسمونه «باهلا» تشبيهاً بالناقة الباهلة التي لا يكون لها صرار، أي ليست مربوطة الثديين.

ويبدو أن العصا و«الفَلْقَة» كانت من مستلزمات مؤدّبي الأطفال، وشيوخ الكتاتيب، كما كانت لازمة لتأديب العبيد وفي هذا قال أبو الطيب المتنبي، يهجو كافوراً الاخشيدي:

لا تشترِ العبدَ الا والعصَا معه ... ان العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

وقال آخر:

العبد يقرعُ بالعصا ... والحرُّ تكفيهِ الاشارة

وقيل أن العصا، لم تكن تفارق يد سليمان بن داود عليهما السلام في مقاماته وصلواته، ولا في موته وأيام حياته، حتى سلط الله الارضة عليها وسليمان ميت وهو معتمد عليها.

ويقول الجاحظ: ان هذا يعتبر دليلاً على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ومن معدن شريف، فاتخاذ سليمان بن داوود العصا لخطبته وموعظته ولطول التلاوة والانتصاب، يعتبر أيضاً من الخصال الجامعة، حيث قال الله في القرآن الكريم:

﴿فلمَّا قَضَيْنَا عَليهِ المَوْتَ، مَا دَلَّهُمْ على مَوْتِهِ إلا دَابَّةُ الأرضِ، تأكلُ

مِنْسَأَتَه، فلمّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ، أنْ لَو كَانُوا يَعلمُون الغَيْبَ، مَا لبِثُوا في العذابِ المهين﴾ (١).

وقال أبو نواس الحسن بن هانيء في أبيات يهدّد بها أهل مصر بخصيب:

فإن يَكُ باقٍ إفْكُ فِرعونَ فِيكُمُ فإنَّ عصَا مُوسَى بكفٍّ خَصِيبِ

ومما يروى عن «العصا» ان عامر بن الظَّرِب العُدواني الذي حكم العرب في الجاهلية، أمر ابنته، لما أسنَّ واعتراه النسيان، أن تقرع له بالعصا من خلفِ الحجاب، اذا رأته قد أخطأ في الحكم، أو جار عن القصد، وكانت ابنته معروفة من حكيمات بنات العرب.

وعامر بن الظَّرِب هذا، تسمّيه العرب «ذا الحلم».

وفي هذا قال الفرزدق:

فان كنت أنسانِي حلـوُم مجاشـعٍ فإنَّ العصا كانت لذي الحُلمِ تُقـرعُ

وقال المتلمّس:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصـا وما عُلِّـم الانسـانُ الا ليعلمَـا

والعرب يذكرون العصا في معانٍ كثيرة، فيقولون: «العصا من العصيّة والافعى بنت حيّة» ويقولون: «فلانٌ شقَّ عصـا الطـاعـة» أو «شـق عصَـا المسلمين».

وقال المضرّس الاسدي:

وألقت عصاها واستقرّت بها النوى كما قـرَّ عينـاً بـالايـابِ المسـافـرُ

وكان يقال لبني أسد «عبيد العصا» يعني انهم ينقادون لكل من يحالفهم من الرؤساء، وأنشد بشر بن حازم:

عبيـد العصـا لم يَتَّقُـوك بـذمّـةٍ سوى شيبِ سعدٍ إنَّ شيبَكَ واسِـعُ

(١) سورة سبأ. الآية ١٤.

ومن مفاخر الزنج أنهم يقاتلون بالعصا قتالاً شديداً، وكانوا يعتمدون عليها في حروبهم، والنبطيون لهم بها ثقافة وشدّة غَلَبة، ويقال ان الاكراد يكونون اثقف ما يكونون اذا قاتلوا بالعصي، ولقتالهم منزلة بين السلامة والعطب، ولا يـزال أبنـاء الريـف المصري حتى عصرنـا الحاضر يتقـاتلـون بالعصي، ولهم فيها فنون بارعة، يتبارون بها ضدّ بعضهم بعضاً في احتفالات موسمية يشهدها جمع غفير من الناس.

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: «ان العصا اذا كانت صحيحة سالمة فيها من المنافع الكبار، والمرافق الاوساط والصغار، ما لا يحصيه أحد، وقد أورد حكاية طويلة عن فتى تغلبي وعصاه، رواه عن «الشرقي» في حديثٍ مستفيض يتلخص في أن الشرقي قال:

خرجت من الموصل، وأنا أريد الرّقة مستخفياً، فصحبني فتى من أهل الجزيرة ما رأيت بعده مثله، زعم أنه تغلبيٌّ من ولد عمرو بن كلثوم، وكان معه مِزود وركوة وعصا، فرأيته لا يفارقها وطالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ عليه ارمي بها في بعض الاودية، فقلت له في شأن عصاه فراح يعدد مناقبها منذ أن كانت بيد موسى عليه السلام، فكنت أضحك متهاوناً بما يقول: فلما برزنا على حمارينا، كان حماره يمشي فاذا تلكأ أكرهه بالعصا، وكان حماري لا ينساق لأنه ليس في يدي ما يكرهه، فسبقني الفتى الى المنزل فقلت: هذه واحدة.

فلما أردنا الخروج من الغد، لم نقدر على شيء نركبه، فكنا نمشي، فكان الفتى اذا أعيا، توكأ على العصا، ووضعها على وجه الأرض فاعتمد عليها ومرَّ كأنه سهم، حتى انتهينا الى المنزل وقد أعياني التعب فقلت هذه ثانية.

ولما كنا في اليوم الثالث سرنا في أرض ذات صدوع فهجمنا على حية منكرة فحاولت الهرب منها، بينما ضربها هو بالعصا حتى قتلها فقلت هذه ثالثة.

فلما خرجنا في اليوم الرابع، قرمت والله الى اللحم، وأنا هارب معدم، واذا ارنب قد اعترضت، فحدفها بعصاه فاذا هي معلقة، فادركنا ذكاتها (أي أدركناها حيّة قبل أن تموت فذبحناها) فقلت هذه رابعة.

فأقبلت عليه فقلت لو أن عندنا ناراً، لما أخَّرتُ اكلها الى المنزل، فأخرج عويداً من مزوده، ثم حكّه بالعصا، فأورت، ثم جمع الغثاء والحشيش واوقد ناره وألقى الارنب في جوفها، فاخرجناها، وقد لصق بها من الرماد والتراب ما نغصّها إليّ، فعلقها بيده اليسرى، ثم ضرب بالعصا على جنوبها واعراضها، ضرباً رقيقاً حتى انتشر كل شيء، فأكلناها وسكن القَرَم، فقلت هذه خامسة.

ثم نزلنا بأحد الخانات، واذا البيوت ملأى بالروث والتراب فلم نجد موضعاً، فنظر الى حديدة مسحاة مطروحة في الدار، فأخذها فجعل العصا نصابا لها، ثم قام فجرف الروث والتراب، وجرد الأرض حتى ظهر بياضها، وطابت ريحها فقلت هذه سادسة.

ثم نزع العصا من حديدة المسحاة، فوتدها في الحائط، وعلق ثيابي عليها، فقلت هذه سابعة.

فلما صرت الى مفرق الطرق، واردت مفارقته، قال لي: لو عدلت معي، فبتَّ عندي، كنت قد قضيتَ حقَّ الصحبة، والمنزل قريب. فعدلت معه فادخلني منزلا يتصل بكنيسة، فما زال يحدثني ويطرفني، ويلطفني الليل كله، فلما كان السحر أخذ خشبة، ثم أخرج تلك العصا بعينها، فقرعها بها، فاذا هي ناقوس ليس في الدنيا مثله، فقلت له: ويلك أما أنت مسلم... وأنت رجل من العرب من ولد عمرو ابن كلثوم؟! قال بلى! قلت فلم تضرب بالناقوس، قال: جعلتُ فداك ان أبي نصراني، وهو صاحب البيعة، وهو شيخ ضعيف، فاذا شهدته بررتُه بالكفاية.

وختم «الشرقي» حكايته عن التغلبي وعصاه بقوله: اذا هو شيطان مارد،

واذا هو أظرف الناس كلهم، وأكثرهم أدباً وطلباً، ولقد حدثته بالذي احصيته من خصال العصا، بعد أن كنت هممت أن أرمي بها، فقال: والله لو حدثتك عن مناقب نفع العصا، الى الصبح، لما استنفدتها.

وللعصا في خطب الجمعة عادات ليس لها أمر صحيح في الدين، وإنما يحملها الخطيب في البلاد التي فتحت صلحاً، ويحمل السيف في البلاد التي فتحت حرباً؟! وما زال بعض الخطباء يفعل ذلك تقليداً من غير نص، بل ومن غير مصلحة!!

والعصا لها في الاديرة والكنائس مقام ومكان، اذ لا بد لسيد الدير أو الكنيسة من عصا ومظلة وقلنسوة، ولا يزال القائم بالموعظة أو القراءة أو التلاوة، يتخذ العصا عند القيام، ويتوكأ عليها عند المشي، من غير أن يكون الداعي الى ذلك، كِبَراً في السّن، أو عجْزاً في القوة، بل زيادةً في التكهل والرزانة، ورغبةً في نفي الطيش والخفة، فمرحى للعصا التي دبت مع الانسان حين دب على هذه الأرض، وما زالت حتى عصرنا هذا، بكلّ ما رافقها من صقل وتطور، ذات مقام ومكان.

مملكة النمل ...
وحياته الاجتماعية ...

يحلو للمتأمل في عظمة هذا الكون الكبير، أن ينصرف يوماً أو بعض يوم، الى التفكّر في عجائب المخلوقات، وتدارس شيء من بدائع هذا الكون الذي جاء مرتباً على روائع فن، منسقاً على آيات إعجاز.

وحديثنا هذا عن مخلوق صغير، هو « النمل » الذي لا يكترث به الكثيرون من الناس، ولا يعبأ به الا الاقلاء من الدارسين، الذين اسبغوا عليه صفة امتلاك شيء من العقل، أو مسكة من الفهم جعلت من فصائله جماعات متعاونة متكاتفة، كما لو كانت مخلوقات حيةً شاعرةً بوجودها الذاتي، تروح وتغدو، لتنشيء قراها، وتبني مساكنها، وتحتفر غرفها ودهاليزها، وتسهر على صغارها، وتختزن مؤونتها، وتربي دواجنها، وترعى مواشيها، وتنظم مجتمعها على أسس عجيبة . . .

ولقد دأب العالم البريطاني جون لبك المعروف باسم اللورد افبري فيلسوف الحياة اليومية، على دراسة فصائل النمال، وعكف على اجراء ابحاثه وتجاربه خلال عدة عقود من السنين، فتبيّن له ان هنالك نحو ألف نوع من فصائل النمال المختلفة، وقد جمع في مختبره أنواعاً كثيرة منها، فثبت عنده ان هذا المخلوق الضعيف كثيراً ما يعيش عمراً طويلاً، وقد عاشت عنده بعض النمال سبع سنوات بينما عمرت احدى ملكات النمل خمس عشرة سنة.

ومن غريب ما ذكره اللورد افبري ان الجماعة الواحدة من النمل قد يبلغ

تعدادها نصف مليون نملة، يستحيل فيها أن تختصم نملتان تنتميان الى جماعة واحدة، كأن هنالك شعوراً مشتركاً بمعنى المواطنية، بل كأن هنالك تعصباً شديداً للحفاظ على وحدة الوطن، حتى أن نمال القرية الواحدة، تنكر نمال القرية الاخرى، ولو كانت من فصيلتها، وذكر هذا الباحث نفسه أنه قسم قرية من النمل الى نصفين، ثم عاد فجمع بينهما بعد ستة وتسعة أشهر فرأى النمال على غاية الوئام، مع أنه كان يدخل النملة الواحدة في قرية غير قريتها، فلا تلبث أن تطرد طرد الغريب الدخيل.

والنمال بوجه عام، لها ترتيب اجتماعي عجيب، بمعنى أن قرية النمل الواحدة تتألف من صغار قصّر، ومن ذكور لا تأتي عسلا، ومن عمال لا أجنحة لها، وأم واحدة أو أمهات، هنّ الملكات اللواتي يسكنّ قصوراً في داخل الاوكار، أما العمال فنادراً ما تبيض، اذ شأنها الاهتمام بشؤون الجماعة من جمع القوت وغيره، بينما تلتزم النمال الصغيرة سكنى القرية، فتحفر فيها الغرف والدهاليز، وتعتني بالمواليد، وتنسقها بحسب السن، حتى لكأن بيوت النمل أشبه ما تكون بالمدارس يرتب فيها الاولاد فرقاً وصفوفاً.

ومن التجارب الطريفة التي لجأ إليها اللورد افبري، حين حاول ان يكتشف العلامة أو كلمة السرّ المتفق عليها بين النمال، ليميزن أنفسهن عن نمال القرى الاخرى، فحاول أن يفقد النملة صوابها ليرى ماذا يكون، فجرب « الكلوريفورم » فكان قتّالاً، فاستعمل الخمر المسكر، ووضعه في متناول النمال، وظن أن النمل لا يتجنبه، فثبت له العكس، اذ أحجم النمل عن استعمال المسكر من تلقاء نفسه لكي لا يسعى في جنون!! عندئذ أخذ خمسا وعشرين نملة أخرى، وأسكر الجميع جبرا بالويسكي بعدما وسم كل نملة بعلامة، ثم وضع الجميع على مائدة كبيرة محاطة بالماء، مع عدد من قرية احد الفريقين، وكانت التجربة مذهلة حين أقبلت النمال على رفيقاتهن السكارى الدائخات المخمورات، في محاولة لافاقتها ولم يمض سوى القليل، حتى كانت النمال

الغريبات تكابد الغرق في افريز الماء، بينما تم نقل البواقي الى القرية، على أيدي زميلاتهن، لينمن ويصحون من خمارهن، فثبت عند اللورد ان نمال القرية يتعارفن ويتميزن، حتى عندما يتعذر ابداء العلامة، أو اعطاء كلمة السر[1].

وقبل اللورد افبري باكثر من ألف سنة عني العرب بدراسة شؤون الحيوان والهوام والحشرات، وكتاب الحيوان «للجاحظ» معروف في سبعة أجزاء، خصَّ فيه النمل ببحث مطول، وقام هو نفسه باجراء الاختبارات عليه، فنقل ان النمل يشبّه بالانسان ذي العقل والرؤية والنظر في العواقب، فهو يدّخر للشتاء في الصيف، ويستعمل الحكمة في الحزم والجد والعمل، حتى اذا خشي على مدخراته، وهي في باطن الأرض من العفن والسوس، أخرجها الى ظاهر الأرض كي تجف بلفح الشمس والهواء ثم أعادها الى مستودعها داخل القرية، وفضلاً عن هذا فان النمل يعرف أن بقاء الحبّ في باطن الأرض قد ينبته، ولهذا يفلق الحب كله أنصافاً كي يفقده خاصيّة الانبات، وبعض الحب، كحب الكزبرة تنبت انصافه، ولهذا يفلقها النمل أرباعاً، فيحول بينها وبين ان تنبت، وللنمل مع لطافته وخفته، حاسة الشم القوية، فاذا صادفت نملة، صيدا صغيرا، سعت فوراً لجره الى قريتها، فان عجزت، مضت وعادت برفيقاتها كالخيط الاسود الممدود، فيقطعن الصيدة ارباً ارباً، أو يجررنها جرّاً، اذ ان النملة تستطيع ان تجرّ ما هو أكثر من وزن جسمها بمائة مرة، واستدل الجاحظ على أن النمل يوحي بعض الى بعض بشيء يشبه التخاطب أو الكلام أو الاعلام، بما تصنعه النملة حين تواقف نملة اخرى وتسرّ لها بشيء.

بل ان الكتب السماوية المقدسة، تحدثت عن النمل لما هو أكثر من ذلك، وفي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿حَتَّى إذا أَتَوْا على وَادِي النَّمْلِ، قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وهُمْ لاَ

(١) كتاب: «محاسن الطبيعة وعجائب الكون» تأليف اللورد افبري تعريب وديع البستاني.

يَشْعُرُون، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا، وقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[1]، وهكذا أخبر القرآن بأن النمل استطاع أن يميز بين الانسان والانسان، وبين القائد والجيش، فقال: سليمان... وجنوده، كما ميّز بين الجند وغير الجند، بل أن النمل دلّل على حزمه، بضرورة التزام المساكن كي لا يحطمنهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، إذ بعدم شعورهم تنتفي مسؤوليتهم ويذهب النمال ضحية إهمالهم.

ومن تجارب اللورد افبري الطريفة، ان احدى ملكات النمال قتلت خطأ بين يديه، فألقى جثتها الباردة في داخل القرية، فلم يخرجها العمال كما لو كانت جثة احداهن، بل حملنها الى وكر جديد، وظللن بقربها عدّة أسابيع، كأنهن يحسبنها حية ترجى، أو كأنهن عرفن بموتها فاردن النحيب عليها بمأتمها، أو لعلهن حسبنها مريضة قد تنقه بعد حين، فلزمنها، لزوم الأهل والأطباء، فراش العليل العزيز المُكرّم.

ويقول الباحث هوبر ان في النمل سيّداً ومسوداً، وخادماً ومخدوماً فاذا أرادت طائفة الاسياد أن تنتقل من مكان الى آخر كان هنالك عبيد وإماء، يحملهن ويذهبن بهن حيث شئن.

وفوق هذا، كان للنمل هوام اليفة أو داجنة، أي كما يعتني الانسان بتربية الابقار والاغنام للحصول على لبنها، فان النمل اعتاد أن يجمع هوامّ اصغر منه جسماً ووزناً وأقلّ ادراكاً، وهي تفرز مادة رطبة كالندى، حلوة كالشهد، فيحميها ويرعاها ويجمع بيضها في الخريف استعداداً للشتاء، وبهذا قال كثير من العلماء بأن من الصعوبة بمكان على من درس طبائع النمل وتاريخها الطبيعي أن يقيم حداً فاصلاً بين ما نسمّيه عقلاً وما نسميّه غريزة.

وقال الجاحظ ان من أسباب هلاك النمل نبات الاجنحة له اذ تصطادها العصافير في حال طيرانها، وفي هذا قال أبو العتاهية:

(١) سورة النمل. الآية ١٨ و١٩.

واذا استـــــوت للنمـــــل أجنحـــــة
حتى يطير فقـــــد دنـــــا عطبُـــــهُ

وقد اختلف الباحثون حول أنواع النمل فبعضهم قال هناك ستة آلاف نوع وبعضهم رفع العدد الى عشرة آلاف نوع . وحول النمل قالت مجلة « دنيا العلم » ما يلي :

ومن الأرجح أن يكون النمل قد نشأ في المناطق الاستوائية ولكنه موجود اليوم في العالم أجمع ، ويتألف جسم هذه الحشرة من ثلاثة أقسام : (الرأس) ويتألف بدوره من صاريتين وفم وعينين مؤلفتين من أجزاء عديدة ، يشكل كل جزء منها عيناً منفردة . و(الصدر) وله ثلاثة أقسام تتصل بها القوائم (عددها ٦) وأخيراً (البطن) .

وهناك نمل لا تعيش اطلاقاً في المنامل (أو المساكن) ومنه النمل المقاتل الموجود في امريكا الجنوبيةوافريقيا والهند ، ويسير هذا النمل دون توقف فيأكل كل ما يعترض طريقه (حيوانات مريضة أو جريحة) وعندما يحين موعد وضع البيض يقف النمل الواحد فوق الاخرى بشكل ستار . فتضع الملكة بيضها خلف هذا الستار ، وما ان يفقس البيض وينمو حتى يتابع النمل المقاتل طريقه .

وكل نوع من النمل له طريقة في بناء المنملة ، فهناك منامل مطمورة تحت الأرض ومزودة بدهاليز متشعبة ، وهناك أيضاً منامل مبنية على شكل جدران وسقوف ، وبعض النمل يحدث نوافذ في المنملة في أيام الحرّ كي يدخل الهواء اليها . ويختار البعض الآخر أوراق الأشجار فيلصقونها بعضها ببعض ويصنعون منها منملة .

ومن أروع أنواع النمل ، نمل يدعى « النمل الفلاّح » أو « أتا » وقد اكتسب هذا الاسم لأنه يزرع داخل المنملة نباتات صغيرة تعطي حبوباً تأكلها الحشرة ،

وعندما تدعو الحاجة الى انشاء منملة جديدة تحمل ملكة نمل (اتا) بعض النباتات الى المنملة الجديدة وتضع بيضها بالقرب منها ، فتقع عندئذ أجنحتها وتتحول عضلاتها إلى سائل تتغذى منه ملكة النمل وأولادها . كذلك تأكل بعض البيض ، ومع مرور الزمن ينمو النمل الصغير فيصبح « عمالا » يقومون بتوفير الغذاء للمنملة .

وأحياناً تستصحب الملكة في أثناء رحيلها بعض النمل العمّال يساعدونها على انشاء المنملة الجديدة ، ويحصل ان تغزو ملكة شابة منملة ملكة معمّرة فتحلّ مكانها بعد أن تقتلها ، وأحياناً تفقد الملكة القديمة ولاء عمّالها فتموت جوعاً .

ويستهدي النمل طريقه بفضل الشمس ، ويحدّد مكانه بالنسبة الى المنازل والاشجار المحيطة به وعندما تعثر احدى هذه الحشرات على بعض الاغذية ، تعود الى المنملة وتعطي رائحة معينة ، فيشم النمل الرائحة ويستهدي بواسطتها الى مكان الاغذية التي عثرت عليها النملة الاولى مما يجعلنا نجزم ان النمل يخاطب بعضه بعضاً بواسطة الشمّ .

وترى غالبية الناس في النمل حشرات مزعجة ومضرّة ، وبالفعل هناك نمل مضرّ . يأكل أوراق الاشجار الخضراء ولكنّ القسم الاكبر من النمل مفيد فهو يأكل الحشرات ويبيدها . والنمل على كل حال ـ سواء كان مضراً أو مفيداً ـ حيوان اجتماعي يتصرف كالانسان ينظم عيشته ويعيّن اهدافه . ولذا فهو أهل لان يكون موضوع بحث في العلم الحديث .

القسم الرابع

قطوف أدبية

- رمضان.. في الأدب العربي..
- حكاية شاعرة تحيَّر فيها الشعراء..
- أديرة النصارى في سِير الخلفاء..
- الشيب.. في أدب العرب.

رمضان...
في الأدب العربي

رمضان، هذا الشهر الكريم، كان له على لسان الأدباء، كُتّاباً وشعراءَ، ألوان وطيوف، وسِمات وآيات، بعضها ينطوي على الترحيب والتكريم، باعتباره شهراً للعبادة، وجسراً للتوبة، وبعضها ينطوي على التململ والحزن، باعتباره شهراً، تُحبس فيه النفس، فتُمنع عنها الشهوات، ويُغلق فيه القلب، إلا عن الطاعات والعبادات.

وقد يكون أبو نواس، شاعر الخمرة والمجون، من أضيق الناس أفقاً بقدوم شهر الصوم، لأنه يحول بينه وبين لهوه وخمره ومجونه، ولذا رأيناه يقول:

صنع الصومُ العُقارا ... وَزَوى اللّهو، فغارا
وبقينا في سجون الـ ... ـصّوم للهمِّ أُساري
غير أنّا سنداري ... فيه من ليس يُداري
نشرب الليلَ إلى الـ ... ـصّبح صغاراً وكبارا
إسقني حتى تراني ... احسَبُ الدّيك حمارا

ويبدو أن أبا نواس كان يستأنس لنفسه إذا قارب شهرُ الصوم على الانتهاء فيقول:

إذا مضى من رمضانَ النّصفُ ... تَشَوّق القَصْفُ لنا والعَزْفُ
وأصلح النّايُ، وَرُمَّ الدَّفُ ... واختلفت بين (العُصاة) الصّحْفُ

لكنَّ أبا نواس، كان كثير الطمع بعفو ربه فهو القائل:

تَكَثَّرَ ما استطعتَ من الخطايا ... فإنك قاصدٌ ربّاً غفورا
سَيُفضي ذاكَ منكَ إلى نعيم ... وتلقَى ماجداً صَمَداً شكورا
تَعَضُّ ندامةً كفَيك مِمَّا ... تركتَ ـ مخافَة النار ـ السّرورا

وتعوَّدَ الملوكُ والوزراء على تقبّل التهاني بحلول شهر رمضان، وفي هذا قال الوزير الأندلسي ابن زَمْرَكٍ، يهنيء سلطانه في قصيدةٍ مطولة، وفيها يقول:

واهنأ بشهر صيام جاء زائرُهُ ... مُستنزلاً من إله العرش رُحَمَاهُ
أَهَلَّ بالسعدِ فآنهلَّتْ به مِنَنٌ ... وأوسَعَ الصُّنعَ إجالاً ووفّاهُ
وعادك العيدُ تستحلي مواردَه ... ويُجزِلُ الأجرَ والرحمىٰ مُصَلاّهُ

وقدم اعرابي على ابن عم له في الحضر، فأدركه شهر رمضان، فقال: وما رمضان؟ قالوا: الامساك عن الطعام، قال: أبالليل أم بالنهار؟ قالوا: لا.. بل بالنهار، قال: أفيرضون بدلاً من الشهر؟ قالوا: لا، قال: فإن لم أصم، فعلوا ماذا؟ قالوا: تُضرب وتُحبس، فصام أياما فلم يصبر، فارتحل عنهم وجعل يقول:

يقول بنو عمي وقد زرت مصرهمُ ... تهيأ أبا عمروٍ لشهر صيام
فقلت لهم: هاتوا جرابي ومزودي ... سلام عليكم فاذهبوا بسلام
فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطرٌ ... عليَّ، ولا منّاعُ أكلِ طعامِ

ودعا عبد الله بن الزبير الحسين، فحضر وأصحابَه، فأكلوا ولم يأكل، فقيل له: ألا تأكل فقال: إنّي صائم، ولكن تحفةَ الصائم (أي أعطوني هديةَ الصائم) قيل: وما هي؟ قال: الدّهن والمِجْمر يعني، البخور والعِطر والطّيب.

وأدرك اعرابياً شهرُ رمضان فلم يصمْ، فعذلته أمرأته في الصّوم، فزجرها، وأنشأ يقول:

أتأمرني بالصوم لادرّدرُّها ... وفي القبر صومٌ يا أميمَ طويلُ

ويتلهف الصائمون عادةً، على تلمُّس ليلة القدر المباركة، وقد ذكرها القرآن الكريم بقوله: ﴿ليلةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[1] وهي تُلتمس بين ليالي الشطر الثاني من الشهر، وفي هذا ينسبُ بعضهم للشيخ محيي الدين بن عربي قصيدةً طويلة، تدل في رأيهم على ضابط ليلة القدر، ومنها قوله:

وإنّا جميعاً إنْ نصمْ يومَ جمعةٍ ... ففي تاسع العشرين خذْ ليلةَ القدرِ
وإن كان يومُ السبتِ موعدَ صومِنَا ... فحادي وعشرينَ اعتمدْهُ بلا عُسْرِ

إلى أن يقول:

وضابطها بالقول ليلةُ جمعةٍ ... توافيكَ بعد النّصفِ في ليلةِ القدرِ

وأما الشاعر الأندلسي محمد بن سَفَر، فقد كان له قصة غرامٍ في ليلة القدر، رواها في قصيدةٍ رقيقة قال فيها:

وواعدتُها والشمسُ تجنحُ للنّوىٰ ... بزوْرَتِها شمساً وبدرُ الدُّجىٰ يسري
فتابعتُ بالتقبيل آثارَ سعيها ... كما يتقصّىٰ قارىءٌ احرُفَ السَّطْرِ
فبتُّ بها واللّيْلُ قد نام والهوى ... تنبَّه بين الغُصْنِ والحِقْفِ والبدرِ
أعانقُها طوراً، والثم تارةً ... الى أن رعتْنا للنوىٰ رايةُ الفجرِ
ففضَّتْ عقوداً للتعانقِ بيننا ... فياليلةَ القدرِ، اتركي ساعةَ النّفْرِ

وأوجز الامام الغزالي آداب الصيام، فقال: هي طيب الغذاء وتركُ المِراء، ومجانبة الغيبة، ورفضُ الكذب، وترك الأذى، وصون الجوارح، عن القبائح.

ونظر أعرابي الى قوم يلتمسون هلال رمضان، فعجب لهم كيف يسعون له، وقال: «أما والله لئن أثرتموه[1]، لتُمسِكُنَّ منه بذُنابي عيشٍ أغبر»!

وفرح الشاعر ابن الحداد بهلال شوال الذي يُنهي شهر الصوم فأنشأ في قصيدته التي يمدح بها المعتصم بنَ صُمَادح يقول:

---

(١) سورة القدر الآية ٢.

(١) أثرتموه أي اكتشفتم أثره.

وبدا هلال الأفق احنى ناسخاً ... عهدَ الصيام كأنه العُرجُونُ
فكأن بَيْنَ الصوم خطَّطَ نحوه ... خطاً خفياً بان منه النُونُ

وفرح أمير الشعراء أحمد شوقي بانتهاء شهر الصوم أيضاً، فراح يغازل الخمرة ويقول:

بالأمس قد كنّا سجينيْ طاعةٍ ... واليوم مَنَّ العيدُ بالاطلاقِ
ضحكتْ اليَّ مِنَ السرورِ ولم تزلْ ... بنتُ الكرومِ كريمةَ الأعراقِ

وقال لقمان لابنه: يا بنيّ أكثر الصيام، وأطل بالليل القيام، وكل أطيب الطعام.

ومن طريف ما يروى عن كفّارة الصوم أن رجلاً جاء إلى النبي عليه السلام وقد ارتكب معصيةً في رمضان، فقال له النبي: هل تجد ما تعتق رقبة؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين، قال: لا، قال: فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا، ثم جلس، فأُتِيَ النبي بمكيال فيه تمر، فأعطاه للرجل وقال له: خذه، وتصدّق به، فقال الرجل للنبي: فهل على أفقرَ منا؟ فوالله ما بين أطراف المدينة، أهلُ بيتٍ أحوجُ اليه منّا، فضحك النبي ﷺ، حتى بدت نواجذُه:وقال: اذهبْ فاطعمه أهلك[1]!

ورمضان، أفسح أمام الأدباء والشعراء، دروب الحديث شعراً ونثراً عن الطاعات والعبادات، في أثناء شهر الصوم الكريم، وسمح لهم بتقديم صور شعرية حلوة، عن هلال الشهر وطلوعه، وعن ارتداء الناس أثواب الجود والسخاء، تقرباً إلى الله بالعطايا والهبات، ومن الصور الجميلة في هذا الباب، ما قاله الشاعر الصقلّي الأندلسي، عبد الجبار بن حمديس للامير أبي الحسن، علي بن يحيى، في قصيدة مطولة يصفه فيها بصيام الفم واللسان، وبافطار كفه من كثرة جوده وسخائه، ويعتبر طلوع هلال رمضان، طلوعاً للصائمين، وأما وجه الأمير وعلاه، فهو بدر تمام لقومه وعشيرته فيقول:

(١) أنظر «مشكاة المصابيح» بتحقيق الألباني (٢٠٠٤) طبع المكتب الاسلامي.

صُمتَ للهِ صومَ خِرْقٍ[1] هُمامٍ ... مفطرِ الكفِّ بالعطايا الجسامِ
اطلعَ اللهُ للصيامِ هلالاً ... ولنا، من عُلاك بَدْرَ تَمامِ

ولم ينسَ الشاعر، أن يربط بين صوم الأمير وبره في النهار، وبين صلاته ونسكه في الليل، فيقول:

واقتضى الشهرُ من معاليكَ صُنعاً ... مُعلياً منه همةً باهتمامِ:
قَطعُ ضوءِ النّهارِ صوماً وبراً ... ودُجى الليلِ بالسُّرى والقيامِ
وسجُودٌ من نورِ وجهكَ طوعاً ... ما أطال السجودَ وجهُ الظلامِ
وخشوعٌ يعلوهُ منكَ وقارٌ ... مُعربٌ عن رجاحةٍ من شِيامِ

ومع الصوم والتقوى، ومع الجود والسخاء، ومع الخشوع والبرّ، كان الأمير أيضاً في شعر الشاعر ابن حمديس، قائد الجيش، وبطل المعارك، يحمي قومه، ويذود عن ديار الاسلام، ويقول:

فَلَكَ اللهُ من كريمِ السجايا ... مُعرقِ المجدِ في الملوكِ الكرامِ
ذِمْرُ حربٍ، له اقتحامُ هِزَبْرٍ ... وجوادٌ، لهُ يمينُ غَمامِ
قامَ للهِ ذو انتصارٍ لدينٍ ... رامتِ الرُّومُ منه كلَّ مرامِ
ورمى ثغرةَ العدوِّ بسهمٍ ... وثنى سهمَهُ عنِ الإسلامِ!

وأما الشاعرُ العسقلانيُّ سجينُ مصر، فقد كتب إلى صارم الدولةِ ابن معروفٍ يقول:

وقد زاد شهرُ الصومِ ربعَكَ صابحاً ... لهُ بأفاويقِ السُّعودِ وغابقَا
تُنوِّرُ بالقرآنِ أسدافُ ليلِهِ ... فيبيضُ منها كلُّ ما كانَ غاسِقَا
تأرَّجُ من تقواكَ فيهِ لطائمٌ ... يظلُّ بها عِرنينُ عامِكَ ناشِقَا

ورأى الأميرُ مهندُ الدولة، ابنُ الخُشَيْميِّ هلالَ رمضانَ، فهفا قلبه لقمرِ حبّهِ وقال:

(١) الخِرْق: الكريم السخيّ.

لله من قمر رآنيَ مُعرضاً عنهُ، وإعراضي حِذارُ وُشَاتِهِ
طلعَ الهلالُ، فقلتُ أعملُ حيلةً في قبلةٍ أجني جَنَى وَجَنَاتِهِ
فمضىٰ وقالَ: تَعَدَّيَنْ قمرَ الهوىٰ لترىٰ الهلالَ رقي إلى دَرَجَاتِهِ
أنا كاملٌ أبداً، وذلكَ ناقصٌ فاجهدْ بوصفي مُمْعِناً وصِفَاتِهِ

وأبو عبادة البحتري، ثالث الشاعرين الكبيرين: أبي الطيب، وأبي تمام اراد أن يهنيء المتوكل على الله العباسي بصيامه وفطره، فأنشده قصيدة مطولة قال فيها:

بالبرِّ صُمتَ وانت أفضلُ صائمٍ
وبسنَّةِ اللّهِ الرضيّةِ تُفطِرُ
فانعمْ بيومِ الفطرِ عيناً، إنه
يومٌ اغرُّ من الزمانِ مُشَهَّرُ
ذَكَرُوا بطلعتِكَ النبيَّ فهلّلُوا
لما طَلَعْتَ من الصفوفِ وكبَّرُوا
ووقَفْتَ في بُردِ النبيِّ مذكراً
بالله تُنذر تارةً وتبشِّرُ
صلّوا وراءكَ آخذينَ بعصمةٍ
من ربِّهِمْ وبذمةٍ لا تُخْفَرُ

وفي صوم الربيع قال ابن عونٍ الكاتب:

جاءنا الصومُ في الربيع فهلاّ اختا ر رُبعاً من سائر الأرباعِ
وكأنّ الربيع في الصوم عِقدٌ فوق نحرٍ غطّاه فضل قِناعِ

وكتب بُديع الزمان الهمذاني[1] إلى بعض أهل همدان في شهر الصوم فقال:

(١) زهر الآداب للحصري القيرواني (ج ٢ ص ٢٢٤).

كتابي اطال الله بقاءك عن شهر رمضان، عرّفنا الله بركة مقدمه. ويُمن مختتمهُ. وخصّك بتقصير أيامه، وإتمام صيامه وقيامه. فهو وإن عظمت بركتُهُ فقد ثقلت حركته. وإن جلّ قدرُهُ فقد بعُد قعره. وإنْ حسن وجهه فليس يقبح قفاه. وما أحسنه في القذال، وأشبه أدباره بالإقبال. جعل الله قدومه سبب ترحاله، وبدره فداءَ هلاله، وأمدّ فلكه تحريكاً، بتقضّي مدته وشيكاً، وأظهر هلاله نحيفا، ليزفّ إليّ اللذات زفيفا. وعفا الله عن مزحٍ يُكرهه، ومجونٍ يُسخطه.

وكتب أبو الفضل بن العميد[1] في رسالة إلى بعض أصدقائه بمناسبة حلول شهر رمضان فقال:

أسأل الله أن يعرّفني ببركته، ويلقّيني الخير في باقي أيامه وخاتمته. وأرغب إليه في أن يقرّب على الفلك دوره، ويقصّر سيره. ويخفف حركته. ويعجّل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرته، ويُزيل بركة الطّول عن ساعاته، ويردّ عليّ غرّة شوّال. فهي أسنىٰ الغرر عندي، واقرّها لعيني، ويُطلع بدره، ويريني الأيدي متطلبةً هلاله ببشر. ويُسمعني النعي لشهر رمضان، ويُعرض عليّ هلاله أخفى من السحر، وأظلم من الكفر، وانحف من مجنون بني عامر، وأبلى من أسير الهجر، وأستغفر الله جلّ وجهه مما قُلتُ إن كرهه، واستعفيه من توفيقي لما يذمّه، وأسأله صفحاً يُفيضه، وعفواً يوسعه، إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وروى أبو الحسن الحصري القيرواني المتوفّى عام ٤٨٨ للهجرة في كتابه: «زهر الآداب وثمر الألباب» شيئاً مما كان يتداوله أهل عصره في تبادل التهاني بقدوم شهر رمضان المبارك فقال:

(١) زهر الآداب (ج ٢ ص ٢٢٤).

☆ ساق الله تعالى إليك سعادة إهلاله، وعرّفك بركة كماله.

☆ قسم الله لك من فضله، ووفقك لفرضه ونفله.

☆ لقّاك الله فيه ما ترجوه، ورقّاك إلى ما تحبه فيما يتلوه.

☆ جعل الله ما أظلّك من هذا الصوم، مقروناً بأفضل القبول، مؤذناً بدرك البغية ونُجح المأمول، ولا أخلاك من برٍّ مرفوع. ودعاء مسموع.

☆ قابل الله تعالى بالقبول صيامك، وبعظيم المثوبة تهجّدك وقيامك.

☆ عرّفك الله من بركته ما يُربي على عدد الصائمين والقائمين، ووفقك الله تعالى، لتحصيل أجر المتهجّدين المجتهدين.

☆ أسأل الله تعالى أن يضاعفه بمنّه لك، ويجعله وسيلة بقبوله إلى مرضاته عنك.

☆ أعاد الله إلى مولاي أمثاله، وتقبّل منه أحواله، وبلّغه منها آماله.

☆ أسعده الله بهذا الشهر، ووفاه فيه أجزل المثوبة والأجر، ووفّر حظّه من كل ما يرتفع من دعاء الدّاعين، وينزّل من ثواب العاملين، وقبل مساعيه وزكّاها، ورفع درجاته وأعلاها، وبلّغه من الآمال منتهاها، وظفّره بأبعدها وأدناها.

والكلام فيما قاله الأدباء بشهر الصوم كثير، وما نظمه الشعراء برمضان لا يعتبر من القليل، وحسبنا ما أوردناه في هذا الفصل، فهو زاد من الزاد، أو غيض من فيض، والله وليّ التوفيق.

حكاية شاعرة تحيّر فيها الشعراء

كانت حسنة الوجه والجسم والقوام. أديبةً. فصيحة. سريعةَ البديهة. مطبوعةً في قولِ الشعر. ليس في نساءِ زمانها، من هو أشعر منها.

وكانت من أحسنِ الناسِ وجهاً. وأنضرهم خَلقاً. وأظرفهم خُلُقاً، وأرقّهم شعراً. وأغزرهم أدباً.

وكانت تتصدر مجالس الرجال والنساء، فيأتيها الأدباء والشعراء، فتُعطي هؤلاء. وتسمعُ من أولئك. فتوفّي كلاً حقه. كيلاً بكيل. وزاداً بزاد:

تحدثوا عنها وأطنبوا، وزادوا وأسهبوا، فقالوا: هي صغيرة السّن، حلوةُ الحديث، نادرة الذكاء، باهرةُ الجمال.

جاءها يوماً. القاسمُ بن عيسى. الشاعرُ الملقب بأبي دُلَف. فوقف في مجلسها. وأنشأ يقول:

قالوا: عشقتَ صغيرةً فأجبتُهم
أشهى المطيّ، إليّ ما لم يُركَبِ
كم بين حبّةِ لؤلؤٍ. مثقوبةٍ
نُظِمتْ. وحبّةِ لؤلؤٍ لم تُثقبِ

وتلتفت الفتاةُ الشاعرةُ الأديبة، لتنال من عشقِهِ برقّة. ولتسفّهَ رأيه بعذوبة، فقالت تجيبه على رويّه ووزنِهِ وقافيتِهِ:

إنَّ المطيَّـــةَ لا يَلَـــذُّ، ركـوبُهـــا
مـا لم تُـذَلَّـلْ، بـالـزّمـامِ وتُـركـبِ
والدرُّ ليس بنـــافـــعٍ أربـــابَـــهُ
مـــا لَمْ يـــؤلَّـــفْ في النّظـــامِ ويُثقَـــبِ

وفي يومٍ من أيام مجلسها. رأتْ شاعرَ الرقةِ والظَّرف. علياً بن الجهم. يختلسُ النظرَ إليها ببراعة. ويتجهُ إلى غيرِها بملء عينيه، ليُخفي سهام لحاظه، فبادرته قائلةً:

يـــا رُبَّ رامٍ. حَسَـــنٌ تعـــرُّضُـــهْ
يـــرمـــي. ولا يُشعِـــرُ أنّـــي غـــرضُـــهْ

فأجابها عليٌّ بن الجهم:

أيُّ فتىً لحظُـــكِ ليس يُمـــرِضُـــهْ
وأيُّ عَقـــدٍ. مُحكـــمٍ. لا ينقضُـــهْ

وبعث إليها شاعرٌ، من آل محمّد بن العبّاس اليزيدي، برسالةٍ شعرية. تفيض حباً وحناناً، منها قولهُ:

أصبحـــت صبّـــاً، هـــائمَ العقـــلِ
إلى غـــزالٍ حَسَـــنِ الشّكـــلِ
أضنـــى فـــؤادي طـــول عهـــدي بـــهِ
وبُعـــدُهُ منّـــي. ومـــن وَصْلي

فأجابته فتاتُنا الشاعرة تقول:

الصبرُ ينقُـــص، والسَّقَـــام يـــزيـــدُ
والدّار دانيـــةٌ، وأنـــتَ بعيـــدُ
أشكـــوكَ؟! أم اشكـــو إليـــكَ فـــإنّـــهُ
لا يستطيـــع ســـواهُما المجهـــودُ

إنّـــي أعُـــوذُ بحرمتي بـــكَ في الهوى
مِـــنْ أن يُطـــاعَ لـــديـــكَ فيَّ حَســـودُ

وطار صيتُ هذه الجارية الشاعرة. فوق كلّ أرض من أرضِ الخلافة، وأصبح قصرُ الخليفة العباسي، المتوكل على الله، قصدَ الشعراءِ، وهدفَ الرّواة، وملتقى أهلِ الأدب. في رحـابِـهِ يجتمعـون. وإلى مجلس الشـاعـرة يتنادَوْن. وفي كنفِها يتسامرون.

* * *

نسبها مؤرخو الأدب، فقالوا: هي جارية مُولّدة، من مولّدات البصرة في العراق، بها وُلِدت، وفيها نشات. وبدارِ رجلٍ من عبد القيس، وعلى يديه تأدّبتُ وتخرّجَتْ. ومنه اشتُريتْ. ثم بيعتْ، ثم أهديت للمتوكل على الله.

كانت هي تقولُ عن نفسها، بأن أخاها هو الذي أدّبها. وخرّجها واعترفَ بها اختاً لأبيه، غيرَ أن بني أبيها، من غير أمّها، تواطئوا على جحدِ الاعتراف بها، ثم... باعوها.

وهكذا وصلت إلى قصر الخليفة، واسمها (فضلٌ العبديّة) فجعلت من انتمائها إلى أسرة الشعر الرقيق أمّاً وأباً، وأقامت لنفسها من الأدب الرفيع حَسَباً ونَسَباً.

* * *

مشى المتوكّلُ يوماً في حديقة قصره، بين جارتين أديبتين شاعرتين، هما فضل، وبنان. فتوكأ بيمينه على يد فضل. وتوكأ بيساره على يدِ بنان. ثم قال لهما: أجيزا ليَ قول الشاعر:

تعلمـتُ أسبـابَ الرِّضـا، خَـوفَ عتبِهـا
وَعَلَّمَهَـــا. حبّـــي لها كيـــفَ تغضـــبُ

فأجازت فضلٌ وقالت:

تصـــدُّ، وأدنـــو بـــالمودّةِ جـــاهـــرا
وتبعـــدُ عنّـــي بـــالـــوصـــالِ وأقـــرُبُ

وتبعتها بنانٌ فقالت:

وعنـــدي لها العُتْبـــىٰ على كـــلّ حـــالـــةٍ
فما منـــه لي بـــدٌّ، ولاعنـــهُ مـــذهـــبُ

* * *

ويبدو أن أكثرَ الشعراءِ في عهدِ فضل، كانوا لا يسمعون شيئاً من شِعرهَا. إلا وتأسِرُهُم عذوبتُهُ كما يأسرهم جمالُها. فيقتنصهم أدبُها الساحر. ويستحوذ على مشاعرهم. جمالُها الباهر، فيقعون بين يديها. أسرى محبةٍ، وصرعىٰ هُيام. ولهذا كان لها مع أكثرهم، أقاصيص حبٍ. وأحاديث غرام، يزينها غَزَلٌ رقيق. وشعرٌ أنيق، ولا يعلم أحد أين قلبُها في قَصص هذا الحب، أو أين كانت من فؤادِها آهاتُ المحبّين.

ولقد أحبها شعراء كثيرون حباً عارماً. فبادلتهم حباً بحب. وساجلتهم شعراً بشعر. منهم أحمدُ بن أبي طاهر. ومنهم سعيدُ بن حميد. الذي بلغ حبُّها من قلبه مبلغاً مؤثراً لم تُعرف نهايته في تاريخ الأدب، إلاَّ أن الثابت في تاريخ هذه الجارية الأديبة الشاعرة. أنه كان لها أحبّةٌ كثر. وكان لها مع كلٍّ منهم، قصّةُ شِعرٍ وحكايةُ حبّ، وهي، وإن كانت قد بكت كثيراً على الخليفة المتوكل يوم قُتل... وإن كانت قد رثته بدموع من الشعر. وعقودٍ من الأدب. إلاَّ أن أحداً لم يعرفْ أينَ كان قلبُ فضلٍ في وقائع حبِّها المتماوج، فشِعرُها الرّقيق، وغَزَلُها الأنيق. كان موزَّعاً بين كلِّ مُغازلٍ ومُحبٍّ وَرَفيق. وما يدري أحدٌ أيَّهم كان الفائزَ بحقيقة الميْلْ. المستمتعَ بصادقِ الحبّ، فهذا سرٌّ بقي مخبوءًا في صدرِ فضل. والله أعلم بالسرائر.

* * *

روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني (ج ١٠ ص ٢٢٦ - ٢٢٨) حكاية طريفة عن فضلٍ الشاعرة وعليّ بن الجهم قال عليّ:

دخلتُ على المتوكل «الخليفة العباسي» وقد بلغني أنه كلّم (قبيحة) جاريته فأجابته بشيء أغضبه، فرماها بمخدّة، فأصابت عينها فأثّرت فيها، فتأوّهتْ وبكتْ وبكىٰ المعتز لبكائها، فخرج المتوكل وقد حُمَّ من الغمّ والغضب، فلما بصُر بي دعاني وإذا الفتح (يعني الفتح بن خاقان وزير المتوكل ونديمه) يُري بختيشوع القارورة ويشاوره فيها. فقال لي (أي المتوكل) قل يا عليّ في علّتي هذه شيئاً وصفْ أن الطبيب ليس يدري ما بي: فقلت:

تَنَكَّـــرَ حـــالَ علّتـــيَ الطبيـــبُ ... وقـــال أرى بجسمـــك مـــا يَـــريـــبُ
جسست العِرقَ منـك فـدلّ جسّـي ... على ألمٍ لـــــه خبرٌ عجيـــــبُ
فما هـذا الذي بـك هـاتِ قـل لي ... فكـــان جـــوابَـــه مني النحيـــبُ
وقلت أيـا طبيـــبُ؛ الهجـرُ دائـي ... وقلبي يـا طبيـبُ هـــو الكئيـــب
فحـرّكَ رأسَـــهُ عجبـــاً لقـــولي ... وقـــال: الحب ليس لـــه طبيـــبُ
فـأعجبني الذي قـد قـال جـدّاً ... وقلـــت: بلى إذا رضي الحبيـــبُ
فقـال هـــو الشفـــاءُ فلا تُقَصّـــرْ ... فقلـتُ: أجـلْ، ولكـن لا يجيـبُ
ألا هـل مسعـدٌ يبكـي لشجـوي ... فـإنّـــي هـــائمٌ فـــردٌ غـــريـــبُ

فقال (المتوكل) أحسنت وحياتي!.. يا غلام اسقني قدحاً، فجاءه بقدح فشرب وسُقيت الجماعة مثله. وخرجتْ إليه فضلٌ الشاعرة بأبياتٍ أمرتها قبيحة أن تقولها عنها، فقرأها فإذا هي:

لأكتَمَنَّ الذي في القلبِ من حُـرَقٍ ... حتى أمـوت ولم يعلم بـــهِ النـــاسُ
ولا يقال شكـا مـن كـان يعشقـه ... إن الشكـاة لمن تهوى هـي الياسُ
ولا أبـوحُ بشيءٍ كنـــت أكتمـــه ... عند الجلوس إذا ما دارت الكـاسُ

فقال المتوكل: أحسنت يا فضل، وأمر لها ولي بعشرين ألف درهم ودخل إلى قبيحة فترضّاها...

وهكذا نرى أنّ فضلاً الشاعرة لم تكتفِ بكونها قد ساهمت بالمصالحة بين المتوكل وجاريته . بل إنها ساهمت أيضاً بتوفير العطاء للشاعر علي بن الجهم ولنفسها . من خلال شعر رقيق وترضية نفيسة للمتوكل .

☆ ☆ ☆

وحدّث أحمد بن طاهر[1] قال: القيتُ أنا على فضل الشاعرة:

علَـــمَ الجمالِ تـــــركتني بهواكَ أشهـــرَ مـــن عَلَـــمْ

فقالت على البديهة:

وأبحتني يـــــا سيّـــــدي سقماً يجل عـــــن السَّقَـــمْ
وتـــركتني غـــرضـــاً ـ فـــديـ ـتـــك ـ للعـــواذل والتّهـــمْ
صلـــة المحـــبّ حبيبـــه اللهُ يعلمُـــــهُ كـــــرمْ

☆ ☆ ☆

وأخبر محمد بن خلف[2] بن المرزبان، عن أبي يوسف الضرير، قال: صرت أنا وأبو منصور الباخرزي إلى منزل فضل الشاعرة، فحجبنا عنها وانصرفنا وما علمت بنا، ثم بلغها مجيئنا وانصرافنا، فكرهت ذلك وغمّها، فكتبت إلينا تعتذر:

وما كنت أخشى أن تـروا ليَ زلّـةً ولكنّ أمـر اللهِ مـا عنـه مـذهـبُ
أعوذ بحسن الصفـح منكـم وقبلنـا بصفحٍ وعفـوٍ مـا تعـوّذ مـذنـبُ

فكتب إليها أبو منصور الباخرزي:

لئن أهديَـتْ عُتبـاكِ لي ولأخـوتي فمثلك يا فضل الفضـائـل يُعتِـبُ
إذا اعتذر الجاني محـا العـذرُ ذنبـه وكل امرىءٍ لا يقبلُ العذر مذنـبُ

☆ ☆ ☆

(١) و(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ج ١٩ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤).

وفضل العبدية ـ كما قلنا ـ كان لها أقاصيص حبٍ وحكايات غرام، مع عدد من فحول الأدب والشعر والجمال، من هؤلاء الكاتب الشاعر المترسل الذي عُرف بحسن الأدب وفصيح الكلام (سعيد بن حميد) من أهل بغداد التي بها ولد ونشأ . وفيها عايش أدباء عصره وشعراء زمانه .

فضل الشاعرة بادلت سعيداً بن حميد حباً بحب وغراماً بغرام . غضبت عليه يوماً فكتب إليها تقول[1]:

يـا أيها الظـالم مـالي وَلَـكْ أهكـذا تهجـر مـن وصلَـكْ
لا تصرفِ الرحمة عـن أهلهـا قـد يعطـف المولى على مـن مَلَـكْ
ظلمـت نفسـاً فيـك علّقْتَهَـا فـدار بـالظّلم عليّ الفَلَـكْ
تبـــــارك الله فما أعلمَ اللهَ بما ألقـىٰ، ومـا أغفلـكْ

فراجعت فضل وصله، وصارت إليه في جواب الرقعة .

☆ ☆ ☆

ويروي صاحب الأغاني حكاية أخرى يقول فيها إن سعيداً بن حميد افتصد[2] فأهدت إليه فضل هدايا كثيرة منها ألف جدي وحَمَل . وألف دجاجة فائقة، وألف طبق ريحان[3] وفاكهة . ومع ذلك طيبٌ كثير وشراب وتحف حسان . فكتب إليها سعيد: إن سروري لا يتم إلا بحضورك، فجاءته في آخر النهار، وجلسوا للشرب، فاستأذن (بنانٍ) غلام سعيد بالدخول فأذن له . وهو يومئذٍ شاب طرير (أي قد طلع شاربه) حسن الوجه، حسن الغناء، نظيف الثياب . شَكِلٌ (أي فيه دلال وغزل) فذهب هذا الشاب بفضلٍ كلَّ مذهب، وأقبلت عليه بنظرها وحديثها، فتشمَّزَ سعيد (أي استكره ذلك)، واستُطير

(١) راجع كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ج ١٨ ص ٩٧ وما بعدها).
(٢) الافتصاد نوع من شق العرق وأخذ الدم.
(٣) اهداء الزهور في المناسبات عادة قديمة عند العرب.

غضباً، فأقبل عليها سعيد يعذلها ويؤنّبها ساعة، ثم أمسك، فكتبت فضل إليه:

يا من اطلتُ تفرّسي في وجهه وتنفسي
أفديك من متدلِّلٍ يُزهي بقتل الأنفسِ
هبني أسأت، وما أسأت، بلى أقرُّ أنا المسي
أحلفتني ألاّ أسارقَ نظرةً في مجلسي
فنظرتُ نظرةَ مخطىءٍ اتبعتها بتفرّسي
ونسيتُ أني قد حلفتُ فما عقوبة من نسي؟

فقام سعيد فقبّل رأسها وقال: لا عقوبة عليه بل نحتمل هفوته ونتجاوز عن أساءته.

* * *

وروى عبد الله بن المعتز عن ابراهيم بن المدبر قال: كانت فضل الشاعرة من أحسن الله خطّاً وأفصحهم كلاماً. وأبلغهم في مخاطبة وأثبتهم في محاورة. فقلت يوماً لسعيد بن حميد: أظنّك يا أبا عثمان تكتب لفضلٍ رقاعها. وتُفيدها وتُخرِّجها. فقد أخذت نحوكَ وسلكتْ سبيلَك، فقال لي وهو يضحك: ما أحسن ظنَّك!! ليتها تسلم منّي ولا آخذ كلامها ورسائلها، واللهِ لو أخذ أفاضلُ الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك...!

* * *

وروى محمد بن السّري أنه صار إلى سعيد بن حميد وهو في دار الحسن بن مخلد في حاجة له، قال: فإني لعنده إذ جاءته رقعةُ فضلٍ الشاعرة وفيها هذان البيتان:

الصبرُ ينقص والسّقام يزيدُ والدار دانيةٌ وأنت بعيدُ
أشكوك؟! أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهودُ

إني أعوذ بحرمتي بك في الهوى من أن يطاعَ لديكَ فيَّ حسود[1]

وتحت البيتين سطر قالت فيه فضل:

أنا يا أبا عثمان في حال التلف ولم تعدني ولا سألت عن خبري؟!.

قال ابن السري فأخذ سعيد بن حميد بيدي، فمضينا إليها، فسأل عن خبرها فقالت: هوذا أموت، وتستريح مني، فأنشأ يقول:

لا متِّ قبلي بل أحيا وانت معاً
ولا أعيشُ إلى يومٍ تموتينا
لكن نعيش كما نهوى ونأملُهُ
ويُرغمُ الله فينا أنف واشينا
حتى إذا قدَّر الرحمن ميتتنا
وحان من أمرنا ما ليس يعدُونا
متنا جميعاً كغصنيْ بانةٍ ذبُلا
من بعد ما نَضَرا واستوسقا حينا
ثمَّ السلام علينا في مضاجعنا
حتى نعود إلى ميزان منشينا

* * *

ويبدو أن قصة الحب لم تتم ولم تكتمل بين سعيد وفضل الشاعرة فقد أخبر ابراهيم بن القاسم بن زرزر عن أبيه قال:

كانت فضل العبدية تتعشق سعيداً بن حميد مدة طويلة، ثم تعشقت غلامه (بنان) وعدلت عنه فقال فيها قصيدته الدالية التي يقول فيها:

(١) سبق أن وردت هذه الأبيات (في كتاب الأغاني) على أنها لشاعرٍ من آل محمد بن العباس اليزيدي.

تنامينَ عـن ليلي وأسهـره وحـدي وأنهى دموعي ان تبثّك مـا عنـدي

فلم تتعطف عليه فضل، وبلغها بعد ذلك أنه عشق جارية من جواري القيان فبعثت إليه بقصيدة تسبّه فيها وتؤنّبه جاء في مطلعها:

يـــا عـــالي الســـنِّ سيّءَ الأدب
شبـــتَ وأنـــت الغلامُ في الطـــرب

* * *

وحدّث ميمون بن هارون قال: لما عشقت فضل الشاعرة بنان بن عمرون المغنّي وعدلت عن سعيد بن حميد إليه، أسف عليها وأظهر تجلدا ثم قال:

قالوا تعزَّ وقـد بـانـوا فقلـت لهم بـان العـزاءُ على آثـار مَـنْ بـانـا
وكيـف يملـك سلـوانـاً لحبّهـمُ من لم يطـقْ للهـوى ستراً وكتمانـا
كـانـت عـزائم صبري استعين بها صـارت عليّ بحمـد اللهِ أعـوانـا
لا خير في الحبِّ إذ تبدو شواكِلُـهُ ولا تـرى منـه في العينين عنـوانـا

وانتهت فضل العبدية بعد لأي إلى حيث ينتهي كل حي، ولكن بعد أن تركت في خزانة الأدب والشعر ثروة تغني القلب وتملأ العين والفكر.

أديرة النصارى في سير الخلفاء

أديرة النصارى في البلاد العربية[١]، كان لها شأن مرموق عند كبار رجال الدولـة، وهـي فضلاً عـن تمتعهـا بمجـالي الاحترام والتكـريم عنـد المسلمين والمسيحيين، وبالإضافة إلى استئثارها بتاريخ مستقل حافل، فإنها قد احتلت أيضاً، مساحات واسعة من صفحات التاريخ الاسلامي، ترك فيها بعض خلفاء المسلمين، الكثير من السير والآثار، دونتها قلائـد النثر، وحفظتهـا قصـائـد الشعر، حتى كانت على مرّ الزمن قصص تاريخ، وشواهد عبر.

الوليد بن يزيد

مرّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أحد خلفاء الدولة الأموية بالشام بدير اسمه «دير بَوَنَّـا» كان قائماً بجانب غوطة دمشق، في أنزه مكان، وألطف بناء، قيل عنه إنه من أقدم أبنية النصارى وهو بالاجمال دير صغير، رهبانه قليلون.

(١) الدّير: بيت يتعبد فيه الرهبان، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم وانما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال. فإن كان في المصر «أي المدينة الكبيرة» كانت كنيسة أو بيْعة، وربما فـرّق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود والبيعة للنصارى. وقال الجوهري: دير النصارى أصله الدار والجمع اذيار والدّيراني صاحب الدّير. وقال أبو منصور: صاحبه الذي يسكنه ويعمّره ديراني وديّار، وقال سلَمة عن الفرّاء يقال دار وديار ودور وأدور وأديار وأديرة وديران. وهذا يُشعر بأن الدّير من اللغات في الدار، ولعله بعد تسمية الدار به خصّص الموضع الذي تسكنه الرهبـان وصـار علَماً لـه. والله أعلم (معجـم الأدبـاء. يـاقـوت الحمـوي - ج ٢ ص ٤٩٥).

مرّ به الوليد بن يزيد، وكان معروفاً بين فتيان بني أمية أنه من ظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم، ومن أكثرهم انهماكاً باللهو والشرب وسماع الغناء.

جذبه مكان الدير، وجمال موقعه، وطيب هوائه، فدخله فوجد من رهبانه حسن الوفادة، وكرم الضيافة، فأقام به يوماً، أمضاه في لهو ومجون وشرب، وقال فيه:

حَبَّذَا ليلتي بِدَيْرِ بَوَنَّا ... حيث نُسقَى شَرَابَنَا ونُغَنَّى
كيفما دارت الزّجاجةُ دُرْنَا ... يحسَب الجاهلون أنَّا جُنِنَّا
ومررنا بنسوةٍ عَطِرَاتٍ ... وغناءٍ وقهوةٍ فنزلنا
وجعلنا خليفةَ اللهِ فَطْرُو ... سَ مجنوناً، والمستشارَ يُحَنَّا
فأخذنا قُربانهم ثم كُفِّرنا ... لصلبان دَيْرهم.... فكفَرنا

هشام بن عبد الملك

ودير الرُّصافة[1] دير قديم جاءت أخباره مع أخبار ملوك غسان، مَرَّ به يوماً أحد خلفاء بني أمية هشام بن عبد الملك، فأعجبه حسن المكان لقربه من مدينة الرقة، وكان الطاعون قد ضرب مدينة دمشق، فأمر هشام ببناء مدينة

(١) هي رصافة هشام بن عبد الملك التي بينها وبين الرّقة مرحلة للحمالين وقد زار ديرها ورآه ياقوت الحموي وكتب عنه في «معجم البلدان».

وقال «المنجد في الأدب والعلوم»: الرصافة مدينة واقعة في بادية تدمر (سورية) في بعد ٢٥ كم عن الفرات. في عام ٤٣٤ للميلاد كانت مقر أسقف مرجعه البطريرك يوحنا الانطاكي. وكانت شهيرة بكنيسة القديس سركيس الشهير. في القرن السادس أمر يوسطنيانس الامبراطور ببناء سورها وأسواقها وغير ذلك من العمارات الباقي أثرها إلى يومنا. كان فيها دير شهير. فيها مات ودفن الخليفة هشام بن عبد الملك وسميت من ثم «رصافة هشام» اهـ.

ونقل ياقوت الحموي عن صاحب كتاب «الديرة» ان دير الرصافة في دمشق إلا أن ياقوتاً قال: ما أرى إلا أنه غلط، وبين الرصافة هذه ودمشق ثمانية أيام.

الرصافة إلى جانب الدير، فكان يسكنها في أشهر الحرّ، ويجد فيها مصيفه المفضل.

وقد مرَّ أبو نواس بهذا الدير فقال فيه:

ليسَ كالدّير بالرُّصافةِ ديْرٌ ... فيه ما تشتهي النفوسُ وتهوى
بتُّه ليلةً فقضَّيت أوطاراً ... ويوماً ملأت قُطريْه لهوا

المتوكل على الله العباسي

وزار هذا الدير فيما بعد المتوكل على الله العباسي فوجد على حائط من حيطان الدير رقعة فيها قصيدة طويلة منها:

أيا منزلا بالدير أصبح خالياً ... تلاعبُ فيه شمأل ودبورُ
كأنك لم تسكنك بيض أو انس ... ولم تتبختر في فنائك حور
وأبناء أملاكٍ غياثِمُ سادةٌ ... صغيرُهُمُ عند الانامِ كبيرُ
إذا لبسوا ادراعَهم فعنابسٌ ... وإن لبسوا تيجانَهم فبدورُ
على أنهم يوم اللقاءِ ضراغمُ ... وأنّهم يوم النّوالِ بحورُ
ولم يشهد الصهريجُ[1] والخيلُ حوله ... عليه فساطيطٌ لهم وخدورُ
وحولك راياتٌ لهم وعساكرٌ ... دخيلٌ لها بعد الصّهيلِ شخيرُ
ليالي هشامٌ بالرُّصافة قاطنٌ ... وفيك آبنه، يا ديرُ، وهو أميرُ
إذا العيشُ غضٌّ والخِلافَةُ لدنةٌ ... وأنت طريرٌ والزمان غريرُ
وروضك مرتاضٌ، ونَوْرَكَ نيّرٌ ... وعيش بني مروان فيك نضيرُ

(١) هنا يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٠ ما نصه:
هذا شاهد على أن هذا الدير ليس بدمشق، لأن دمشق أكثر بلاد الله أمواهاً. فأي حاجةٍ بهم إلى الصهريج، وإنما الصهريج في الرصافة التي قرب الرّقة وشاهدت بها عدة صهاريج عادية محكمة البناء، ويشرب أهل البلد والدّير منها، وهي في وسط السّور. ١ هـ.

بلى!.. فسقَاكَ الله صوبَ سحائبٍ عليكَ بها بعد الرواح بكورُ
تذكّرتُ قومي بينها فبكيتهم بشجوٍ، ومثلي بالبكاء جدير
لعلّ زماناً جار يوماً عليهمُ لهم بالذي تهوى النفوسُ يدورُ
فيفرح محزونٌ وينعم بائسٌ ويُطلقُ من ضيقِ الوَثاقِ أسيرُ
رويدك!.. إن اليوم يتبعُهُ غدٌ وإنَّ صروف الدائراتِ تدور

ولقد ارتاع المتوكل عند قراءة هذه القصيدة، وظن أنه هو المهدّد بها، فاستدعى سيد الدير وسأله عنها فأنكر أن يكون على علم بمن كتبها، فهمّ بقتله، لكنّ الندماء شهدوا به خيراً، فتركه. ثم بان أن الأبيات من شعر رجل من ولد (روح بن زنباع الجذامي) من أخوال هشام بن عبد الملك.

معاوية ابن أبي سفيان ويزيد

وكان لمعاوية ابن أبي سفيان، وابنه يزيد، قصة في دير مران القريب من دمشق، المشرف على مزارع الزعفران، المحاط بالرياض الغنّاء، والأشجار الباسقة، خلاصتها أن يزيداً كان ضيفاً في الدير، فبلغه نبأ نازلةٍ نزلت بالمسلمين وهم بأرض الرّوم، فصرفه لهوه وعبثه وسروره عن الاهتمام بشأنهم وقال في ذلك شعراً منه:

وما أبالي بما لاقت جموعهمو بـ «الغَذْ قَدُونَةِ» من حُمَّى ومن مُومِ
إذا اتّكأت على الأنماطِ مرتفقاً بديرِ مُرّانَ، عندي أمُّ كلثوم

وأم كلثوم هي زوجته، فبلغ ذلك معاوية فقال: «لا جرم ليلحقن بهم، ويصيبه ما أصابهم، وإلا خلعته، فتهيأ للرحيل وكتب إليه يقول:

تَجَنَّى لا تزالُ تَعُدُّ ذنباً لتقطعَ حبلَ وصلِكَ من حِبالي
فبوشِكُ أن يريحَكَ مِن بلائِي نُزُولي في المهالِكِ وارتحالي

وجاء ذكر هذا الدير، شعراً نديّاً على لسان أبي بكر الصنوبري، وفيه يقول:

أمُرُّ بديرِ مرّانٍ فأحيَا وأجعلُ بيتَ لَهوي «بيت لَهْيا»
ويُبرد غُلتي بردىٰ.. فَسَقْياً لأيامٍ على بردىٰ.. وَرَعْيا
ولي في باب جَيْرونٍ ظباءٌ أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
ونعم الدّار داريّا ففيها حلالي العيشُ حتى صارَ أريا
سقت دنيا دمشقَ لنصطفيها وليس نريد غيرَ دمشق دنيا
تفيضُ جداولُ البلّورِ فيها خلالَ حدائقٍ تُنْبِتَنَ وشْيا
مظلّلة فواكهها بأبهى المـ ـناظِرِ في نواضرها وأهيا
فمن تُفّاحَةٍ لم تَعْدُ خدّاً ومن رمّانَةٍ لم تُخْطِ ثديا

سليمان بن عبد الملك

ومرّ الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بدير اسمه «دير الغور» يقع بين دمشق وبيت المقدس في منطقة غور البلقاء، فنزل فيه واستجاد ضيافته ومكانه، غير أن رجلاً شبب بجاريةٍ له، فقبض عليه سليمان واستقدمه إلى الدير، وخصاه فيه، فسمي هذا الدير بعد ذلك «دير الخصيان».

عمر بن عبد العزيز

وحين مرض عمر بن عبدالعزيز، دخل عليه سيد «دير سمعان» يعوده ويحمل له هدية من فاكهة الدير، لكن الخليفة أصرَّ على اعطائه الثمن فرفض الديراني، فلم يزل به عمر حتى قبض، وقيل إن عمر بن عبد العزيز قال له:

«إني بلغني أن هذا الموضع ملككم، قال نعم، قال إني أحب أن تبيعني منه موضع قبر سنة، فإذا حال الحول انتفع به، فبكى الدّيراني وحزن وباعه، فدفن فيه، وهو الآن لا يعرف.

وقد جاء اسم دير سمعان على لسان عدد من الشعراء، خلال رثائهم لعمر بن عبد العزيز، منهم كثيّر عزة الذي قال فيه:

سقى ربنا من ديـر سمعـان حفـرة بها عمَـرُ الخيراتِ رهنـاً دفينُهـا

ومنهم الشريف الرضي الذي قال:

ديـر سمعـان لاعـدتـك الغـوادي خير ميـتٍ مـن آل مـروانَ ميتُـك

عبد الله بن المعتز

وتروى عن الخليفة العباسي عبد لله بن المعتز بن المتوكل[1]، الذي لم تـدم خلافته سوى يوم وليلة، قصة في دير عبدون[2]، لم يعرف عنها إلا ما جاء في قصيدة ابن المعتز «الشاعر» وقد اورد بعض أبياتها ياقوت الحموي في «معجم البلدان» فقال:

سقَى المطيرةَ ذاتَ الظِّـلِّ والشَّجـرِ وديـرَ عبـدونَ هطّـالٌ مـن المطَـرِ
يـا طـالما نبَّهتني للصَّبـوحِ بـه في ظُلمة اللَّيل والعصفـورُ لم يطِـرِ

(١) ابن المعتز: عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم إبن الرشيد العباسي، أبو العباس الشاعر المبدع، خليفة يومٍ وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم، وصنَّف كتباً منها «الزهـر والريـاض» و«البـديـع» و«الآداب» و«الجامـع في الغنـاء» و«الجوارح والصيـد» و«فصـول التماثيـل» و«حلي الأخبار» و«أشعار الملوك» و«طبقات الشعراء».

وابن المعتز جاءته النكبة من حيث يسعد الناس. آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي. واستصغره القوّاد فخلعـوه، وأقبلـوا على ابن المعتـز فلقَّبـوه «المرتضى بـالله» وبايعوه بالخلافة، فأقام يوماً وليلة. ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه. وعاد المقتدر فقبض عليه وسلّمه إلى خادم له اسمه «مؤنس» فخنقه. وللشعراء مراث كثيرة فيه، وله ديوان شعر مطبوع في جزأين. «الأعلام ـ لخير الدين الزركلي ـ ج ٤ ص ٢٦٢».

(٢) سمي بدير «عبدون» لأن عبدون أخا صاعد بن مَخْلد. كان كثير الألمام به والمقام فيه فنسب إليه. وكان عبدون نصرانياً، وأسلم أخوه صاعد على يد الموفَّق واستوزره.

أصـواتُ رهبـان ديـرٍ في صلاتِهم سودِ المدارع نعّـاريـنَ في السَّحـرِ
مُزَنَّرين على الأوساطِ قـد جَعَلُـوا على الرؤوس أكـاليلاً مـن الشَّعَـرِ
كما فيهمُ من مليحِ الوجهِ مكتحـلٍ بالسّحرِ يُطبـقُ جَفنيـهِ على حـوَرِ
لاحظتُـهُ بـالهوى حتى استقـادَ لـه طـوعـاً وأسلفني الميعـادَ بـالنَّظَـرِ
وجـاءني في ظلامِ اللَّيـلِ مستتراً يستعجل الخَطْوَ من خوفٍ ومن حَذَرِ
فقمت أفرشُ خـدّي في التراب لـهُ ذلاً واسحـبُ اذيـالي على الأثَـرِ
فكـان مـا كـان مما لستُ أذْكُـرُهُ فظـنَّ خيراً ولا تسـألْ عـن الخَبَـرِ

ويقع دير بن عبدون «بسرّ من رآى» إلى جنب المطيرة، قريباً من جزيرة ابن عمر وبينهما نهر دجلة.

وهنـاك عـدد مـن الأديـرة بـاسم «مـارت مـريم»: بنـوا في الحيرة بين الخورنق والسدير، ودير بمصر، ودير بنواحي الشام، وهو قديم جداً، ونزل به الخليفة هرون الرشيد، وفيه يقول الشاعر:

نعـمّ المحـلُّ لمنْ يسعـىٰ لِلَـذَّتِـهِ ديـرٌ لمريم فـوق الظَّهـر معمـورُ
ظلٌّ ظليـل، ومـاءٌ غيرُ ذي أَسَـنٍ وقاصراتٌ كأمثالِ الدُّمىٰ حـورُ

خالد بن الوليد

ومن طرائف تاريخ الأديرة، أن يكون هنالك دير يعرف بدير خالد، أي خالد بن الوليد، وقد سمي بهذا الاسم لأن خالداً نزل فيه حين كان على حصار دمشق سنه فتحها، وكان اسمه دير صليبا، وهو واقع في ضاحية دمشق، مقابل باب الفراديس، وفيه يقول أبو الفتح محمد بن علي المعروف بأبي اللقاء:

جَنَـة لُقّبـت بـديـر صليبـا مبـدعـاً حسنُـهُ كمالاً وطيبـا
جئتـه للمقـام يـومـاً فظلنـا فيـه شهـراً وكـان أمـراً عجيبـا
شجـر محدق بـه ومياه جاريات والروض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يُضحي بـه الثَّـــ ـــاكلُ مما يـرىٰ لـديـه طَـروبـا
كم رأينـا بـدراً بـه فـوق غصـنٍ مـائسٍ قـد علا بشكـلٍ كثيبـا
وشربنـا بـه الحيـاةَ مُـداماً تطلع الشمسُ في الكؤوسِ غروبـا
فكـــأن الظَّلامَ فيهـــا نهارٌ لِسنـاهـا تَسرُّ منَّـا القلـوبـا
لسـت أنسى مـا مـرَّ فيـه ولا اجعلُ مـدحـي إلاَّ لـديـر صليبـا

الأمثال ... في أدب العرب

الامثال عند العرب، بحر ناء به كاهل التاريخ، وفنّ نعمت به العقول والنفوس، وهو قد رافق الفكر منذ نشأته. وتعهد الكلام على فطرته. فلم يعد يرى الانسان الحريص على اثبات منطقه أفضل من مثلٍ سائرٍ، يطلقه لـدعـم حجته. وبهذا تساوى في الحرص على «المثل»، الانسان الهازل والجادّ، والعالم والجاهل والكاتب والقارىء، والقائل والسامع، فاذا كلُّ حديثٍ أو خطابٍ أو مقالٍ لا بدّ له من شاهد، يكون مثلا من الأمثلة الدائرة على ألسنة الناس عفواً وبدونٍ تكلّف، بالفصيح طوراً وبالعامية اطواراً.

ولقد حظيت الامثال في أدبنا العربي، بالكثير من الاهتمام حتى كان لكل مثل قصة ولكل قصة تاريخ، لا بأس في ان يكون تاريخها موضوعاً، أو نسبها مجهولاً، فالمهم هو «المثل»، وما أحلى الامثال في مواضعها، وما أكرهَها إن جاءت مائعةً تافهة.

تحدث شهاب الدين الاندلسي عن الامثال عند العرب فقال:

هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني التي، تخيّرها العرب، وقدمهـا العجم، ونطـق بها كل زمان، ووردت على كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخَطابة، لم يسر شيء مسيرها ولا عمّ عمومها، حتى قيل (أسْيَرُ من مثل):

مـا انـت الامثـلُ سـائـر يعـرفـه الجاهـلُ والخابـرُ

ولقد ضرب الله الامثال في كتابه، فقال في القرآن الكريم: ﴿وضرَبَ اللهُ مثلاً رجلين﴾[1] وقال: ﴿يا أيُّهَا النَّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فاَستَمِعُوا له﴾[2] وقال: ﴿ان الله لا يستحي ان يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها﴾[3] وكذلك ضربها رسول الله ﷺ، وكان مما قال: (لا يلدغُ المؤمنُ من جحرٍ مرتين)[4] (إن من البيان لسحراً)[5] وقال أيضاً في الغلوِّ بالعبادة: (ان المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى).

ولجأ الحكام والعلماء والادباء والشعراء والخطباء، الى استعمال الامثال عند الحاجة اليها، لما تستأثر به من وقعٍ في النفوس، وتأثيرٍ في الحجة، ومن هؤلاء من ذهب كلامه او شعره أو نثره، مثلاً سائراً بين الناس، ومنهم من نقله عن غيره، واستحضره من ذاكرته، وقد يكون المثل، بيتاً من قصيدة، او صدراً من بيت، أو جملةً مأثورة، أو حكايـةً مروية، فتظل دائرةً على السنة الناس، لا يملها السمع، ولا تبليها الاعوام.

فلو سمعنا انساناً يتحـدث، واستشهد بمثَله وقال: (في بيتِه يُؤتى الحَكَم). ولو رحنا نتقصى تاريخ هذا المثل، لرأيناه مروياً عن قصة عربية موضوعة طويلة، خلاصتها ان الضبع والثعلب احتكما الى الضبِّ في خلاف بينهما فقال لهما: (في بيته يُؤتى الحكم). فذهبت مثلاً.

وقصة المثل النبوي الكريم: (إنَّ من البيان لسحرا) قصة حلوة جاء فيها، ان الزبرقان بن بدر، وعمروٍ بن الاهتم، وفدا على رسول الله ﷺ فوقف

(١) سورة ابراهيم، الآية ٧٦.
(٢) سورة الحج، الآية ٧٣.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٦.
(٤) وهو حديث صحيح على أبي هريرة رضي الله عنه انظر «الاحاديث الصحيحة» رقم ١١٧٥.
(٥) وهو حديث صحيح انظر «صحيح الجامع الصغير» رقم ٢٢١١ و٢٢١٢.

الزبرقان ليشيد بنفسه وبقومه وهو على رأس وفده، فقال يا رسول الله: «انا سيّد تميم، والمطاعُ فيهم والمجابُ منُهم، آخذ لهم بحقّهم وامنعهم من الظلم، وهذا يعرف ذلك، وأشار الى عمرو بن الاهتم، فوقف عمرو وقال: أَجَل يارسول الله انه مانع لحوزته، مطاع في عشيرتـه، شـديـدُ العـارضَـةِ فيهـم، وجلس. فقال الزِّبرقان: يارسول الله، والله قد علم أكثر مّما قال، ولكنه حَسَدني شرفي... فاستثار هذا الردّ عمروٍ استثارةً كبرى، واندفع ليرد فقال:

أما لئن قال الزّبرقان ما قال، فوالله مـا علمتـه الاضيّـقَ العَطَـن، زَمِـنَ المروءة، احمقَ الاب، لئيمَ الخال، حديثَ الغِنى... هنا بَدَت الكراهةُ في وجه رسول الله لتباين اقوال ابن الاهتم وتناقضها في مجلسٍ واحد، فما كان من عمرو بن الاهتم، الا ان وقف وقال: يا رسول الله، لقد رضيتُ فقلتُ أحسنَ ما علمت، ولقد غضبتُ فقلت أقبح ما علمت، ووالله ما كذبت في الاولى ولقد صدقتُ في الثانية، فتبسم رسول الله لحسن التخلص، بهذا الاسلوب البياني الرفيع وقال: (ان من البيان لسحراً) فذهبت مثلاً.

ونعرف المثل الدائر على السنة الناس: (لكل سؤالٍ يا بُثينَ جواب) وهو عجز بيت من الشعر قاله جميل بثينة، في قصيدة طويلة. وهذا أصله:

فقلنـا لها قـولا فجـاءت بمثلـه لكـلِّ سـؤالٍ يَـا بُثَيْـنَ جـوابُ

ومن الامثال العربية، التي تضرب في مواضع التهمة، وفي اختلاف اخلاق الناس وطبائعهم قولهم: (ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة) وهو مأخوذ عن قصة جاهلية، جاء فيها ان عامراً بن ذهل، وثب على عمّه قيس بن ثعلبة، يريد ان يخنقه لاسترداد مال أبيه فصاح به عمه الشيخ: دعني، وأرسل يقول: (ما كلُّ بيضاءَ شحمة ولا كلُّ سوداءَ تمرةٌ) أي وأن يكن عامراً قد شابه أباه في خَلْقه، فلم يشبهُه في خُلُقه، وذهب قوله مثلاً.

الشّيب ... !
في أدبِ العَرب !

فـــإن تســـألُـــوني بـــالنّســـاء فإنّني
بصير بـــــأدواء النســـــاءِ طَبيـــــبُ
إذا شـــابَ رأسُ المرء او قـــلَّ مـــالُـــه
فليسَ لهُ مـــن ودّهـــــنّ نَصيـــــبُ

قال هذا القول، قبل اكثر من ألف وخمسمئة سنة، علقمة بن عبدة، أحد فحول شعراء الجاهلية قبل الاسلام، ويبدو ان حكاية الشيب مع الانسان، حكاية قديمة قدم الزمان، حتى لقد قيل: ان أول من رآى الشيب، ابراهيم الخليل عليه السلام، فقال: يا رب ما هذا؟! قال له: هو الوقار، فقال: ربِّ زدني وقاراً. وَسَمع ابو نواس، شاعر الخمر والدن والكأس، بخبر هذا الوقار فقال:

يقـــولـــونَ في الشيـــبِ الوقـــارُ لاهلِـــهِ
وشيبي ـ بحمـــــد الله ـ غيرُ وقـــــارِي

وتحدث ادباء العرب كثيراً عن الشيب، في جاهليتهم وأسلامهم، حتى اذا رأوا رجلا أشيب قالوا: «ذوى غصنُ شبابه وبدت في رأسه طلائع المشيب» واذا كثر عليه الشيب قالوا: (غزاه الشيب بجيوشِه، وطوى الشيبُ شبابَه)، واذا فاجأه الشيب قالوا: (بينا هو راقد في ليل الشباب ايقظه صبح المشيب)، واذ اشتعل رأسه شيباً قالوا: (ما هو الا شمس العصرِ على القصر، أركانه قد هوت، ومدته قد تناهت) وهكذا قالوا وقالوا، وأكثروا من

وروى العرب في كتب الادب أمثالا كثيرة وألفوا فيها الكتب، ونظموا فيها الاشعار. ومما قالوه (اسخى من حاتم) و (اشجع من ربيعة) و(انكى من ليث بن زهير) و(اعزّ من كليب) و(اوفى من السموأل) و(أذكى من إياس) و(اسودُ من قيس) و(أمنع من الحارث بن ظالم) و(أبلغ من سُحبان) و(أحلمُ من الاحنف) و(أكذب من مسيلمة) و(أصمد من أبي ذر الغفارى) وغير ذلك كثير كثير.

وأما الامثال العامية، فحدث عنها ولا حرج، فهي كثيرة وطريفة، ومتداولة على الالسنة بشكل عجيب، وتعتبر صرحاً كبيراً من صروح الادب الشعبي المتداول، غير المكتوب.

ولا يفوتنا في ختام هذا الحديث ان نشير الى سيد شعراء الحكم والامثال أبي الطيب المتنبي، فان أبياته الشعرية بما تضمنته من حكم وأمثال، كانت في اعتقادنا السبب الاول الذي جعل المتنبي (مالىء الدنيا وشاغلَ الناس) ذلك لان ابياته هذه، قد ظلت متداولة على الالسنة، بشكلٍ مثير للعجب، بحيث لا يزيدها مُرّ العصور والسنين، الا تقديراً وتداولا، وهذا دون ان ننسى غيره من المحدثين او الجاهليين كلبيد وعمرو بن كلثوم وخاصة زهيراً بن أبي سلمى، صاحبَ المعلقة التي يمكن ان يكون كل بيت من ابياتها، مثلاً مستقلاً او حكمة منفردة كقوله: (ومن لا يكرم نفسه لا يكرم).

ومهما تكن عند امرىء من خليقـة وان خـالها تخفـى على النـاس تعلم

ولا شك في ان بقاء الامثال على الدهر، دون ان تبلى جدتها مع كثرة تداولها، هو الذي حمل مؤرخي الادب على القول: بان الامثال أبقى من الشّعر، وأشرف من الخطابة. ولله في قضائه شؤون وتدبير.

القول، حتى لقد راع الكثيرين من الناس، قول الحصري القيرواني، في وصف الرجل المشيب حين روى فقال: (لقد خلق عمره، وانطوى عيشه، وبلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع، وأشرف على دار المقامة، فلم يبق الا أنفاس معدودة، وحركات محصورة). وكأن ابا الفضل الميكالي، كان مقتنعاً بما قيل في الشيب، فقال:

فخيرُ عمرِ الفتى ريعانُ جدَّتِهِ
والعمرُ من فضةٍ والشيب من خبثِ

وكذا، حزن ابو الطيب المتنبي، حين وافاه الشيب، الذي يرافقه في العادة الحلم والوقار والحكمة والدراية، فتمنى ان يشتري سواد شعره بما كسبه من حلم وتجربة لان الحلم يوجد في الشبان والشيب، ولكنه رفض ان يخدع نفسه وغيره، باللجوء الى الخضاب، فقال في حزن وأسى:

ومِن هوى كلِّ من ليستْ مُموَّهةً
تركُت لونَ مشيبي غيرَ مخضوبِ
ومِن هوى الصدقِ في قولي وعادتِهِ
رغبتُ عن شَعَرٍ في الوجه مكذوبِ
ليت الحوادث باعتني الذي اخذت
مني، بحلمي الذي اعطت وتجريبي
فما الحداثة من حِلم بمانعةٍ
قد يوجد الحِلم في الشبّان والشيب

وهزئت جارية الخليفة المأمون من أبي دُلفٍ الشاعر، حين رأت شيبة في رأسه فقال فيها وأوجعها:

تهزّأت أنْ رأت شيبي فقلتُ لَها
لا تهزئي.. من يطل عمرٌ به يشبِ

شيبُ الرجال لهم زينٌ ومكرمة
وشيبكنّ لكُنَّ الويلُ.. فاكتئبي
فينا لكنَّ وإن شيبٌ بَدَا أَرَبٌ
وليس فيكنّ بعد الشيبِ من أرَبِ

ورحم الله أبا دُلف، فهو لو عاش زماننا هذا، لما رأى شيبة واحدة الا على رأس من يريد الشيب، رجلاً كان او امرأة، لان الخضابَ والاصباغ، المختلفة الالوان والاجناس، قد قضت في هذا العصر على اكتئاب النساء والرجال، وصار لكل امرأة او رجل، الشعر الذي يرضى واللون الذي يريد.

ورأى احد الشعراء، قدومَ الشيب، كقدومِ ضيفٍ غال يجب تكريمه، ولا تكريم لبياض الشعر الا بالخضاب فقال:

للضيف ان يُقرى، ويعرفَ حقَّهُ
والشيب ضيفُك، فآقِرِهِ بخضابِ

وتعب شاعر من كثرة الشيب، وعذاب الخضاب فقال:

انّ شيباً صلاحُهُ بخِضابِ
لعذابٌ موكَّلٌ بعذاب

وأما مالك بن اسماء بن خارجة فقد قال لجاريته: اخضبي رأسي ولحيتي، فقالت له: دعني.. فقد عيبت من كثرة ما ارقّعك.

وكأنّ النبي العربي ﷺ، قد عرف هروب الناس من الشيب فرخص لهم فيه وقال: «غيّروا هذا الشيب» فكان ابو بكر يخضب شعره بالحنّاء، وأكرم النبي الذين غزا رؤوسهم الشيب فقال: (من شاب شيبةً في الاسلام، كانت له نوراً يوم القيامة).

وكأنّ أديب هذا العصر عباس محمود العقاد، قد رضي بالشيب، ورحب به فقال له:

قـــل لابن تسعينَ لا تحزنْ فـــذا رجـــلٌ
دونَ الثلاثينَ قـــد ســـاواكَ في الهرَمِ
وليسَ مـــا يخدعُ الفتيـــانَ يخدعِني
كلا ولا شيمُ الفتيـــانِ مـــن شِيمِـــي
يـا شيـبُ ضـاقـت بـك الدُّنيـا بـأجمَعِهـا
فـانـزل بلا ضـائـق بـالشيـب او بَـرِمِ

ولقد استملح ابن قتيبة، بياض الشيب في رؤوس الشباب واستقبحه في رؤوس الفتيات، بينما استملح الخال في خدّ الفتاة واستقبحه في خدود الشباب فروى عن أحد الشعراء قوله:

الخالُ يقبـــحُ بـــالفتى في خـــدِّهِ
والخالُ في خـــدِّ الفتـــاةِ مليـــحُ
والشيـــب يحســـن بـــالفتى في رأسِـــهِ
والشيـــب في رأسِ الفتـــاةِ قبيـــحُ

ورآى أبو الطيب المتنبي بالشيب، وسيلةً للاعراب عن الفتة ووفائه فقال:

خُلقـت ألوفـاً لـو رجعـت الى الصبـى
لفـارقـت شيبي دامـع العين بـاكيـاً

القسم الخامس

قطوف صحافيّة

• طراف الصحافة
بين الدّين والأدب والتاريخ

المركز الثقافي الاسلامي

يتشرف بدعوتكم إلى الاستماع لمحاضرة يلقيها

الأستاذ بشير العوف

موضوعها

طرائف الصحافة بين الدين والأدب والتاريخ

وذلك في الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ٢ جمادى الأولى ١٤٠٢هـ.
الموافق ٢٥ شباط ١٩٨٢م.

المكان: شارع السادات - بناية جرداق — هاتف: ٨٠٢٥٤٨ - ٨٠٢٥٩٤

نورد في الصفحات التالية نص المحاضرة التي ألقاها مؤلف هذا الكتاب في المركز الثقافي الاسلامي في بيروت وهي « قطوف » من كتاب سيصدر قريباً للمؤلف إن شاء الله بعنوان: « الصحافة . . . تاريخاً وتطوراً وفناً ومسؤولية » .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السيدات والسادة:

لا بد لنا من أن نمرّ بتاريخ الصحافة، منذ نشوئها حتى عصرنا الحاضر مروراً سريعاً، نستشف من خلاله ظروف نشوء هذه المهنة التي أصبحت من أخطر مهن العصر الحديث ومن أهمّها ضرورة، وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً كما نستشف من خلاله مختلف التطورات التي تقلبت فيها هذه المهنة حتى وصلت الى حالةٍ تيسر لها معها أن تدخل الى كل بيت، وأن تلامس كل فكر، وأن تحظى باهتمام كل مواطن، مهما تتفاوت درجة معرفته وثقافته، ومهما تكن صفته في الهيئة الاجتماعية.

الصحافة كما هو معروف صناعة حديثة، الا أنها في حقيقة الأمر تعتبر صناعة قديمة جداً، هذا اذا كان المقصود بالصحافة، أو إذا كان المطلوب منها تسجيل الحوادث والوقائع، ونقل الأخبار لجمهور القراء والمستمعين، بدليل ان البابليّين كان لهم قبل حوالي خمسة آلاف سنة مؤرخون مكلفون بتدوين الحوادث وتحرير الأخبار.

ويقول المؤرخ الفرنسي «فرانسوا ڤولتير» في أحد كتبه، إنه كان لدى الصينيين في الزمن السحيق صحف ومجلات ولكنه لم يأت على قوله هذا بدليل، بينما ذكرت دائرة المعارف الفرنسية: ان أقدم جريدة صينية كانت قد صدرت في بكين خلال القرن الميلادي الثامن.

ولم يذكر تاريخ اليونان القدماء كيف كان أهل ذلك العصر يتداولون

الأنباء بيد أن بعض المؤرخين، قد استنتج من تلاقي اليونانيين في الميادين العامة ما كان كافياً لتداول الأنباء، وللتعليق عليها شفهياً في الحال، دون الحاجة الى الكتابة والتدوين.

وفي تاريخ الامبراطورية الرومانية، ما يؤكّد أن يوليوس قيصر قد ابتدع قبل ألفي سنة فكرة اصدار نشرة عامة يومية يدوّن عليها موظفون مختصون ما يجري كل يوم بين جدران مجلس الشيوخ، وما يقع للشعب من أحداث، ثم يجري تعليقها في الساحات العامة، والأماكن المأهولة فيعرف منها الناس أخبار الدولة، وبهذا حلّت النشرة اليومية، محل الحوليات الكبرى. وكانت تروي كل الحوادث، حتى أقلها شأناً كأخبار القدوم والسفر، والولادات والوفيات اضافة الى أخبار الأحكام القضائية، ودعاوى الافلاس. ثم تنوعت أخبارها فشملت الشؤون السياسية وأمور الدولة، وأنباء الأقاليم، وميادين القتال وأخبار الدواوين والمحاكم والأحزاب.

ويبدو أن الشكوى من الهجمات الصحفية، أو من لغة الصحافة وأسلوبها في مواجهة الآخرين، تعتبر قديمة قدم هذه الصناعة، فقد شكا منها الفيلسوف الروماني «سينيكا» لأنها كانت تتوسع في نشر حوادث الطلاق وفي تفصيل فضائحها.

وقد يكون مفيداً أن نأتي بنماذج عما كانت تنشره تلك الجريدة الرومانية على عهد يوليوس قيصر أي في عام ٥٨ قبل الميلاد، فمن هذه الأخبار على سبيل المثال قولها:

«وقعت مشاجرة عظيمة في حانة على أكمة جانوس، فأصيب صاحب الحانة بجراح خطيرة».

«عوقب أمس عدد من الجزارين لبيعهم لحوما قبل فحصها».

«قبضت الشرطة على اللص دميفون، ونفذت حكم الصلب فيه في نفس اليوم».

« وصل اليوم الاسطول قادماً من آسيا » .

ونلاحظ أن اللغة في هذه الأخبار، لم يطرأ عليها تبديل يذكر لدى بعض الصحف، عما كانت عليه قبل ألفي سنة .

هذا شيء من تاريخ الصحافة في مفهومها القديم، ويضيف اليها بعض المؤرخين قولهم بأن النقوش الحجرية والأثرية القديمة الدالّة على الإخبار والإعلام ليست سوى ضرب من ضروب الصحافة القديمة، وأمّا الصحافة اليومية بمفهومها الحديث، فلم تظهر الا في نهاية القرن الثامن عشر، وكانت هزيلة جداً في المادة والاخراج والطبع والتوزيع، ولكنها أخذت تقوى وتتدرج في الصعود، حتى احتلت أعلى مراتب الاهتمام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، في مختلف أنحاء المعمورة وحتى أصبح متعذراً جدّاً إجراء احصاء دقيق وصحيح لعدد الصحف والمجلات الموجودة في العالم .

واذا كانت أول جريدة يومية رسمية في بريطانيا، قد صدرت في عام ١٦٢٢ باسم « ويكلي نيوز » فان صناعة الخبر المخطوط قد ظهرت فعلا في بريطانيا قبل ذلك بثلاثمائة سنة، أي في القرن الثالث عشر، وبعد ذلك بقرنين، شاع انتشار الخبر المخطوط على نطاق واسع في كل من المانيا وايطاليا، وكان النبلاء يدفعون بسخاء أثمان الاخبار المخطوطة وخاصة في البندقية .

وأما في فرنسا فقد ظهرت عام ١٤٠٩ جريدة « بورجوا دو باريس » وكانت مليئة بأخبار الغيبة والفضائح الأخلاقية والقصص السرية المتعلقة بالحياة الخاصة للأفراد، بالاضافة الى أنها كانت تتضمن نشرات عن حالة الجو والطقس والمطر والرياح .

وقصة ظهور أول جريدة رسمية في فرنسا، قصة طريفة، وكذلك كانت قصة أول صحفي فرنسي مارس هذه المهنة .

هذا الصحفي الفرنسي كان اسمه « تيو فراست رينودو » وكان قد بدأ حياته طبيباً للملك، ثم حصل على اذن وامتياز بافتتاح مكتب للعنوانات، فافتتح أول مكتب له في باريس عام ١٦٣٠، كان بمثابة مكتب للاستعلامات والاعلانات يلتقي فيه الباعة والمشترون، وبذلك أصبح لدى (رينودو) معين لا ينضب من أخبار الناس وقصصهم، عامةً كانت أم خاصة، ففكّر في كتابتها ثم فكّر في عمل عدة نسخ منها، لتوزيعها على مرضاه حين يعودهم، ولمّا تزايد عليه الطلب، فكر في طبعها وبيعها للأصحاء أيضاً، واستحصل على امتياز ملكي باصدار هذه النشرة أسبوعياً عام ١٦٣١ باسم « لاغازيت » . والمظنون أن هذه الكلمة أو هذه التسمية مشتقة من كلمة أهل البندقية « غازيتا » وهي قطعة نقود صغيرة، كانت تدفع أيام حربهم ضد الأتراك العثمانيين، كأجر لسماع موجز أنباء الحرب، وهكذا كانت هذه الجريدة أول جريدة فرنسية صدرت، رغم أنها مرّت بفترات كساد كبيرة .

وهكذا توالى صدور الصحف، في مختلف البلاد الأوروبية، وفي مختلف بلاد العالم . وزاد عددها تدريجياً زيادة كبيرة، ونما انتشارها نمواً سريعا، ولقد صدرت أول جريدة أمريكية في مدينة بوسطن عام ١٦٩٠ وبعدها تعاقب صدور الصحف في نيويورك وواشنطن وسائر البلدان الأمريكية .

ومع انتهاء القرن السابع عشر، وبداية القرن الثامن عشر توالى صدور الصحف والمجلات السياسية والأدبية، يومية واسبوعية فبلغ عدد هذه الصحف في أوروبا ماية وأربعين جريدة مما أزعج الحكام ازعاجاً كبيراً فاضطروا لاستعمال وسائل العنف، حتى لقد قيل عن (جون والتر) صاحب جريدة (التايمس) الانكليزية انه كان يستخدم سفنه الخاصة لتوزيع جريدته في سائر الأنحاء .

هكذا كان الحال في أوروبا، وأما في أمريكا فقد كان الحال على العكس . ذلك لأن القرن الثامن عشر كان قرن ثورات وتحرر واستقلال، فكان على

الصحافة الامريكية أن تلعب دوراً كبيراً في هذا المضمار، ولهذا نجت من الضغط واستعمال وسائل العنف، ولعل انشغالها بالأعمال الوطنية الكبرى، قد صرفها عن الانشغال بالزعماء والقادة والسياسيين، أو لعله قد شغلها عن الاهتمام بالأفراد وبشؤونهم الخاصة فكان هذا سبباً من أهم الأسباب التي يسرت للصحافة الامريكية ان تنجو من السلطة. كما أن السلطة قد نجت من تحكم الصحافة عدا السلطة الاستعمارية بالطبع.

وأما في العالم العربي، فان الاعتقاد السائد هو أن الشعراء العرب على اختلاف العصور القديمة، كانوا هم الذين يقومون بمهمة الصحفيين، يدوّنون في أشعارهم التي تتناقلها الرواة، أخبار الحكام والأمراء بكل ما يستلزم ذلك من مديح أو هجاء اضافةً الى تدوين الحوادث العادية التي يتصل تسجيلها بالمناقب والمثالب وبالتفاخر والتهاجي، وبالحضّ على الشجاعة والإباء والكرم والخلق النبيل، فضلاً عن أخبار الفتوحات والحروب وما يرافقها من انتصارات وهزائم، ولا ننسى شعراء «المعلقات» بل أن أسواق (عكاظ) كانت أشبه ما تكون بمواسم صحفية.

وكان لسيدنا محمد ﷺ، عدد من فحول الشعراء يقارعون أعداء الرسالة الاسلامية، ويهاجونهم عند الاقتضاء كما كانوا يمدحون الرسول، ويذكرون فضائل دعوته، وأنباء انتشارها، وفي مقدمة هؤلاء حسان بن ثابت الذي وصف رسول الله شعره بأنه أوقع على الأعداء من حدّ السهام، وأن روح القدس كان يؤيد حسّاناً في مقارعة الأعداء، وواضح أن الشّعر قد قام مقام الصحافة نوعاً ما، منذ صدر الاسلام.

وكلمة (الصحف) وردت في القرآن الكريم أكثر من مرة ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [1]، ﴿رَسُولٌ مِن اللهِ يَتْلُو

(١) سورة الأعلى، الآية ١٨ و١٩.

صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ [1] ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [2]، والصحف القرآنية هي صحف السماء التي نزل بها الروح الأمين على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولم تعرف بلادنا العربية الصّحافة في شكلها الحديث، الا منذ أقل من مئتي سنة، أي حين قام نابليون بونابارت بغزو البلاد المصرية عام ١٧٩٩ م فلقد قال المؤرخون العرب: ان نابليون جلب معه الى مصر آلة طابعة ومعها رجلان فرنسيان أحدهما مستشرق عالم، والثاني عامل عادي فنّي، وقد قامت بعثة نابليون العلمية بنشر ثلاث جرائد، احداها عربية وتدعى (الحوادث اليومية)، يحرّرها اسماعيل الخشّاب، وقيل أن اسمها كان (التنبيه)، والاثنتان فرنسيتان الأولى: (ديكاداجيبسيان) والثانية (لوكوريبه ديجيبت). غير ان الدكتور ابراهيم عبده ذكر في كتابه «تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٥١» ان صحيفة «التنبيه» المذكورة لم تصدر أبداً وقال: إن الظروف المحيطة بمصر إذ ذاك لم تسمح باخراجها فبقي مرسوم إنشائها معطّلاً ولم يعمل به.

وقد اعتبر المؤرخ اللبناني «فيكونت دي طرزي» جريدة (الحوادث اليومية) المذكورة هي جدّة الصحف العربية ولم ينس أن يقول: «وهكذا أتيح لأمة غريبة، أن تُدخل هذا الفن الشريف الى البلاد العربية مع سائر جراثيم التمدن الحديث»!!

وبرجوع تلك الحملة الفرنسية الى بلادها عام ١٨٠١ انقرضت هذه الصحف الثلاث، وبقيت بلاد العرب خالية من الصحف، سبعا وعشرين سنة، حيث أصدر محمد علي باشا الكبير، رأس الأسرة العلوية في مصر جريدة (الوقائع المصرية عام ١٨٢٨ م) وما زالت تصدر حتى الآن بوصفها جريدة

(١) سورة البيّنة، الآية ٢.
(٢) سورة التكوير، الآية ١٠.

رسمية للحكومة المصرية) .

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد، هو أن أسماء الصحف العربية في بداية ظهورها، كانت أسماء مبتكرة، اتبع فيها أصحابها اصطلاحات اللغة وذوق أهل العصر، فسمّوا جرائدهم بأسماء تطيب معانيها كقولهم: « حديقة الأخبار » و« مرآة الأحوال » و« نزهة الأفكار » ثم عرّبوا أسماء الصحف الأجنبية ونقلوها الى العربية فقالوا : « الزمان » ، « الوقت » ، « الصباح » ، « الفجر » ، « الأيام » ، « المنار » ، « الحضارة » ، « العمران » ، « والترقي والتقدم والنهضة والاصلاح » ، وغير ذلك .

وكذلك اختاروا أسماء المدن لصحفهم كالقاهرة والقدس ودمشق وأم القرى والحجاز وبيروت والمدينة المنورة والرياض وبغداد وتونس وغيرها .

والغريب أن جرائد هزلية أو عامية، قد صدرت في بداية هذا القرن[1] ، تحمل أسماء هزلية منها جريدة « ظهرك بالك » صدرت عام ١٩٠٩ و« حط بالخرج » و« أعطيه جملة » و« الحمارة » وما أشبه ذلك .

☆☆☆

هذا هو موجز تاريخ الصحافة العربية والعالمية، منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر، الذي بلغت فيه الصحافة شأواً بليغاً وخطيراً، لا يستطيع معه أي انسان الا أن يعطيه حقه من البحث والدرس، وكبير العناية والاهتمام . ولو وقف أحدنا اليوم، وقفة استطلاع وتأمل ولو اتبع ذلك بالقاء نظرة فاحصة على وضع الصحافة ككل، أي سواء كانت جريدة يومية أو مجلة اسبوعية، وسواء كانت سياسية أو اخبارية، وعلمية أو أدبية، أو اختصاصية بعلم أو فن أو صناعة أو تجارة أو زراعة أو ما أشبه . . . اذا وقف أحدنا هذه الوقفة، واذا ألقى هذه النظرة، فانه سيقول بسرعة ان الجريدة أو المجلة، قد أصبحت للانسان الواعي في هذا العصر أشبه ما تكون بالغذاء اليومي الذي لا يمكن

(١) القرن العشرون الميلادي .

الاستغناء عنه، فهي للسياسي والحاكم والزعيم زاد اليوم بما تحمله من أخبار العالم، وأشهر الحوادث، وأهمّ التعليقات، وهي للعالم والمفكّر والفنّان، قاموس منجزات العلم والفكر والفنّ على اختلاف حقول المعرفة، وهي للاقتصادي والعامل والصانع والفلاح، خلاصة ما طرأ من تطور على الأموال والمحصولات والمنتجات ومختلف الموارد والمصادر، وهي للمرأة والرجل صحيفة اعلان عن الأزياء والملبوسات ومختلف حاجات الأسرة من غذاء وكساء ودواء، وهي للشاب والشابة والطالب والطالبة عنوان المسارح والمقاهي والملاهي والمتنزهات، وهي فوق هذا دليل بيع وشراء وآجار واستئجار، وهي أيضاً درع هجوم أو حصن دفاع، عندما يستعر أوار المعارك السياسية بين السياسيين، وهي في ساعات الفراغ مراد تسلية في أحاجي و« حزّورات » وكلمات متقاطعة أو . . . متواصلة . وهي أخيراً، وقبل هذا وذاك يمكن أن تكون أداة اصلاح أو أداة افساد، وأداة خير أو أداة شر، وأداة حرب أو أداة سلام، وأداة عدل أو أداة ظلم وأداة نظام أو أداة فوضى، وأداة ايقاظ أو أداة تخدير، وأداة توجيه رشيد، أو أداة اضطرابات وفتن .

هذا هو الوصف الدقيق الشامل الذي يدل على المكان الخطير الذي باتت تحتله الجريدة اليومية، أو المجلة الاسبوعية، في عصرنا الحاضر، ولعل خطرها يكون أكبر وأثرها يكون أفعل اذا علمنا أنها سهلة التناول، يستطيع أن يحصل عليها أي انسان بثمنٍ بخسٍ فتفعل فعلها الكبير في نفسه، ان كان خيراً فخير، وان كان شراً فشر، وبهذا تسلّلت الجريدة أو المجلة الى كلّ بيت، وأصبحت في متناول كل يد، وأصبح لها أو بها سلطان على كلّ عقل أو رأي أو فكر .

هنا يجب أن نقول كيف يجب أن يكون الصحفي ؟

والجواب على هذا جواب طويل لا مجال لتفصيله في هذه المحاضرة الموجزة غير أننا نحب أن نشير الى أن الصحافة هي مهنة وهواية في آنٍ واحد

ومن لا يتوفر فيه أو له الصفتان معاً فانه يصعب عليه أن يكون صحفياً أو منشئاً لصحيفة.

والصحافة كهواية تستهوي الكثيرين من الناس حتى أولئك الذين يبلغون أعلى مراتب الدولة والحكم.

لقد حدثنا تاريخ الصحافة العالمية عن ملوك ورؤساء وأباطرة لم يكتفوا بأن منعوا على المواطنين حق مزاولة المهنة الصحفية، وحق اصدار الصحف، بل انهم احتكروا لأنفسهم حق مزاولة المهنة، وحق كتابة المقالات الرئيسية، بل وحق اصدار الصحف فجمعوا بين سلطان الحكم وسلطان الصحافة، ومن هؤلاء امبراطور فرنسا نابوليون بوناپارت، الذي كان يكرس جزءاً يومياً من أوقات دولته ليكتب في جريدته المقالات التي يردّ بها على خصوم حكمه في داخل فرنسا وخارجها، وكذلك كان يصنع سلفه لويس الرابع عشر. مما حمل الناس على اضفاء صفة « الجلالة » على مهنة الصحافة فقالوا: (صاحبة الجلالة الصحافة) كما كانوا يقولون: (صاحب الجلالة الامبراطور).

ومن طريف ما يروى عن نابليون بوناپارت قوله: (ينبغي على الحاكم أن يجعل الصحافة في خدمته). وهو قد طبّق هذا بحرفيته، بل أن أحد خصومه (جول جان) قد قال: (ان نابليون قد سحق الصحافة تحت كعب حذائه). ويبدو من تتبع قصص نابوليون مع الصحافة الفرنسية، أنه راح يسحقها شيئاً فشيئاً، فيفرض عليها الرقابة الحديدية التي تخنق أي صوت معارض، ثم يضعها تحت رحمة البوليس وحكم الارهاب، رغماً عن أنه بدأ بداية حسنة، حين استدعى من المنفى ثلاثين صحفياً، ومنح العفو لستة وثلاثين آخرين، وأنشأ لجنة أسماها (لجنة حرية الصحافة) الا أن هذه اللجنة لم تجتمع مرة واحدة، لأن أمر الدولة قد استتب له، فلم يعد بحاجة لمن يعكر مزاج حكمه، فأمر بعدم السماح لأي صحفي بالكتابة، ما لم يحصل على اذن من الامبراطور، ومع استتباب الأمر رأى نابوليون أن الضرورة لم تعد تقتضي غير وجود صحيفة

واحدة في فرنسا هي (لومونيتور Le Moniteur) وغير صحفي حرّ واحد هو (القنصل الأول الامبراطور نابوليون بوناپارت)!!

واذا كان بعض مؤرخي الصحافة، قد أعذروا نابوليون في بعض صنيعه وقالوا (ان مهمة رئيس الدولة توجب توجيه القلم الصحفي) فان مما لا شك فيه أن نابوليون لم يكن يبغي هذا وحده من وراء احتكار الصحافة لنفسه بل كان يبغي أيضاً ارضاء هوايته الشخصية، هواية العمل الصحفي بدليل أنه سبق له أن أصدر عدداً من الصحف والمجلات في فرنسا وايطاليا من أمواله الخاصة، حتى أن جريدة (كورييه ديجيبت) التي أنشأها في القاهرة عند حملته على مصر عام ١٧٩٩ قد أنشأها أيضاً من أمواله الخاصة، وكان وهو قائد (الحملة الفرنسية) يديرها ويحرّرها ويشرف عليها بنفسه، فلو كان غرضه توجيه القلم الصحفي لخدمة الدولة فقط، لما بادر الى انشاء الجرائد من ماله الخاص، اذ لا شيء يمنعه الانفاق عليها من خزينة الدولة!

ويؤيّد هذا، وأعني رغبة الامتلاك وارضاء الهواية الشخصية، ما رواه (اميل بوافان) في كتابه « تاريخ الصحافة » من أن نابوليون كان يقوم بمهمة رئيس التحرير وكان يراجع البرقيات، ويشير بخطوط كبيرة في الهوامش على الفقرات التي تنشر منها، وكان يملي التعقيبات ويصحح الأصول قبل نشرها، ويراقب خطوات جمع الجريدة، من تنظيم الصفحات (الميزامباج) الى تحديد الموضوعات واختيار الأبواب.

فهل يعتبر هذا كله ـ يا ترى ـ من مهمة توجيه القلم لخدمة الدولة، أم يعتبر تعبيراً عن الرغبة بالامتلاك الشخصي، وعن ارضاء الهواية الكامنة؟!.

ولا نلوم نابوليون بوناپارت... على هوايته ورغبته، فمهنة الصحافة مهنة حلوة مغرية محبّبة، وهي برغم متاعبها ومآسيها وأخطارها، تظلّ مهنة تستهوي الكبار والصغار، والرؤساء والمرؤوسين، فكم من حاكم أو رئيس أو وزير، لا يصل الى منصبه، الا عن طريق ممارسة المهنة الصحفية، ثم لا يغادر منصبه في

الحكم الا ليفتش عن منصب يتربع عليه في ادارة صحيفة، أو كرسي يجلس عليه وراء مكتب للتحرير، يكتب من فوقه مقالة.

نعم لا نلوم نابوليون على ارضاء الرغبة والهواية، ولكننا نلومه في أمرين: الأول: هو استغلاله لقوة الدولة وسلطان الحكم، كي يحتكر لنفسه هذا العمل، الذي تتوق اليه نفوس الكثيرين من المواطنين. والثاني: ادعاؤه بأن مصلحة الدولة تقتضي وضع الصحافة في خدمة الحاكم، فلماذا؟... وكيف يجوز للحاكم أن يضع الصحافة في خدمة حكومته؟!

اننا نفهم أن لا يكون للصحفي الحق في تخريب السياسة الخارجية على بلاده، لأن رسم السياسة الخارجية من اختصاص الحكومة التنفيذية، التي تتحمل مسؤولية ذلك أمام سلطات البلاد التشريعية، ولكننا لا نفهم إطلاقاً أن يكون الشعب محروماً من الصحف التي تعبّر عن مطالبه، وتكشف مظالمه وتدافع عن حقوقه وتكون همزة الوصل بين الشعب والحكومة في كل ما يعود على المصالح الوطنية والقومية بالخير العام.

ولكي لا نظلم امبراطور فرنسا، نابوليون بوناپارت، نقول: ليس نابوليون وحده هو الذي صنع هذا... بل ان سائر الدكتاتوريين الذين حكموا بلادهم حكماً دكتاتورياً قد صنعوا بصحافة بلادهم مثل ما صنعه نابوليون بصحافة فرنسا. واذا كان هؤلاء وغيرهم ممن جاؤا قبل نابوليون أو بعده لم يسيروا كما سار نابوليون من ناحية الشكل والمظهر فانهم قد ساروا خلفه على التأكيد من ناحية المضمون والجوهر، أي إنّ حرية العمل الصحفي كانت عندهم حرية الحاكم المتسلط الدكتاتور فقط، لا حرية الشعب أو الوطن.

كلهم سواء، لا فرق فيما اذا كانوا دكتاتوريّين شيوعيّين أو اشتراكيّين أو رأسماليّين أو نازيّين أو فاشيستيّين أو عرباً أو أجانب... كلهم سواء، ولو اختلفت أساليبهم وطرائق مصادرتهم لحرية الشعب الصحفية.

واذا كان نابوليون، ومن هم على شاكلته، قد ماتوا وخلّفوا لأنفسهم

وصمة التاريخ في مصادرة الحرية الصحفية، فاننا لا ننسى لهم أنهم خلّفوا للصحافة إسماً نبيلاً هو (صاحبة الجلالة الصحافة).

وهنا لا بد من ملاحظة صغيرة حول كلمة «الجلالة» فنحن كمسلمين تعملنا من كتب اللغة والمعاجم وبينها (لسان العرب) لابن منظور الافريقي أنه لا يقال (الجلال) الا لله تعالى، فهو سبحانه ذو الجلال والاكرام. وأما كلمة (الجلالة) فلم يأت في كتب الفقه الاسلامي نص يمنعها، ولقد قال ابن منظور في لسان العرب أيضاً: (جل فلان في عيني، جلالاً وجلالةً، أي عظم).

وما دمنا تحدثنا عن المناسبات التي أطلقت على الصحافة لقب (صاحبة الجلالة) فلا مانع أيضاً من أن نتحدث عن السبب الذي أعطى الصحافة صفة (السلطة الرابعة) في الدولة.

من المعلوم أن أنظمة الحكم في بلاد العالم أنظمة عديدة مختلفة لا مجال للحديث عنها حديثاً مفصلاً، الا أن أنظمة الحكم الديمقراطية قد لجأت الى توزيع سلطات الدولة توزيعاً عادلا، حافظت فيه على التوازن بين سلطات الحكم من جهة كما حرصت على صيانة معنى العدالة بين المواطنين الى أقصى حد ممكن (أقول: ممكن) من جهة أخرى.

وحيث أن سلطة الدولة قد انحصرت في النظام الديمقراطي البرلماني ـ كما قلنا ـ بثلاث سلطات، هي: السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية، وبما أن (الشعب) هو مصدر السلطات في عرف النظام المذكور فان الناس أعطوا الصحافة إسمياً صفة (السلطة الرابعة) لأنها تعتبر معبرة عن رأي الشعب. وربما كان من الاولى مع هذا التسلسل أن تسمى السلطة الاولى، اذا كانت ناطقة فعلا باسم الشعب.

هذا ـ بالطبع ـ من الناحية النظرية أو الاسمية أو المعنوية، وأما من الناحية العملية، فاننا لا نرى الصحفيين في هذه الأيام خارجين من السجن الا ليتهيأوا للعودة اليه، خاصة في بلدان العالم الثالث الذي لا تزال مفاهيم الديمقراطية فيه

عبارة عن ثوب مهلهل تحكمه الميوعة والفوضى، وفقدان التوازن بين السلطات. وهذا دون أن نتحدث عن عمليات الخطف والاغتيال والارهاب الفكري الذي تجاوز كل حد من حدود العرف أو الأخلاق أو القانون.

أيها السيدات والسادة

ذكرنا فيما سبق أن هناك ما يشبه الاجماع، على أن الشعراء كانوا يقومون في العصور الغابرة بالدور الذي يقوم به الصحفيون في العصور الحديثة، وذكرنا أن النبي العربي عليه السلام، كان له شعراء عديدون يدافعون عن الدعوة الاسلامية وينشرون رسالتها، ويسجلون مفاخرها وأمجادها، ويحفظون للتاريخ أنباء فتوحها وانتصارها، ولا ريب في أن ما ينطبق على شعراء تلك العصور من رعاية وتكريم يمكن أن ينطبق على صحفيّي العصور الحديثة من ناحية التكريم والرعاية.

أتناول هنا قصة الشاعر العربي المخضرم كعب بن زهير بن أبي سلمى وما جرى له بين يدي رسول الله ﷺ، فهذا الشاعر كان شاعراً جاهلياً مشركاً لم يشرح الله قلبه للاسلام في البدء، وقيل أنه هجا النبي ﷺ وشبّب بأم هانيء بنت أبي طالب. فغضب رسول الله وأهدر دمه، وقيل إنه أمر بقتله وقطع لسانه.

وحين أسلم هذا الرجل، حظي بعطف عظيم من النبي، لم يحظ بمثله الا الاقلاء من كبار الصحابة، وذلك بسبب أبيات من الشعر هي أشبه ما تكون بمقال في جريدة...

تقول مصادر التاريخ الاسلامي، إن كعباً بن زهير، نقم على أخيه بجير لأنه اعتنق الاسلام، وأرسل اليه يقول:

أبلغا عنّي بُجيراً رسالةً ... على أيّ شيءٍ وَيْبَ غيرك دلّكا
على خُلُقٍ لم تُلفِ أمّاً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

سقاك أبو بكر بكأس رويّةٍ ... فأنهلك المأمور منها وعلّكا

وقد غضب النبي من كلمة (المأمور)، لأن العرب كانت تقول لكل من يتكلم بالشيء من تلقاه نفسه (مأمور)، يريدون أن الذي يقوله تأمره به الجن، رغم أن رسول الله ﷺ، كان مأموراً من الله تعالى، ولكنه كره الكلمة لعادة العرب فيها.

وحين صدر حكم النبي على كعب، حزن بجير بن أبي سلمى على أخيه كعب، وكتب اليه قائلا: النجاء، النجاء وما أدري أن تتفلت، ثم كتب اليه وقال: اذا أتاك كتابي هذا فأسْلم، وأقبل اليه، فانه لا يأخذ مع الاسلام بما كان قبله، فأسلم كعب. وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد، ورسول الله ﷺ مع أصحابه. قال كعب: فعرفته، فتخطيت الناس اليه فأسلمت وقلت: الأمان يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك. قال: من أنت؟ فقلت كعب بن زهير، قال: الذي يقول... ثم التفت الى أبي بكر فقال: كيف قال؟ فأنشده أبو بكر الأبيات حتى قال:

فأنهلك المأمور منها وعلّكا

فقال كعب: ما هكذا قلت يا رسول الله، وانما قلت:

سقاك أبو بكر بكأسٍ رويّةٍ ... فأنهلك المأمون منها وعلّكا

فقال رسول الله ﷺ: مأمون والله؟.

وهكذا أبدل كعب الراء بالنون من كلمة (المأمور) فتغيّر الحال، وقبل منه الرسول هذا التبديل، وأحبت قريش اسلام كعب ولانت له، بينما تجهمته الانصار وأغلظت له، فأنشد النبي قصيدته العصماء:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ... متيّم إثرَها لم يُفْدَ مكبولُ

الى أن يقول فيها:

نُبِّئْتُ أنّ رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هذاك الذي أعطاك نافلة القرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تـأخـذنّي بـأقـوال الوشـاة ولم أذنـبْ وان كثرت فيَّ الأقـاويـل
ان الرسـول لسيـف يستضـاء بـه مهنّـد مـن سيـوف الله مسلـول

فقام النبي ﷺ، ورفع بردته عن منكبيه الشريفين وكسا بها كعبا بن زهير، فطار بها كعب فرحاً واعتزازاً، وظل يحتفظ بها طيلة حياته ذخيرة ممجدة مكرّمة، ولما حاول معاوية بن أبي سفيان أن يشتريها منه، ليتبّرك بها هو والخلفاء الأمويون، قال له كعب: «ما كنت لأوثر بثوب رسول الله أحداً» الاّ أن معاوية ظل مصراً على شراء البردة المباركة، فلما مات كعب، اشتراها من أولاده بعشرين ألف درهم وظل الخلفاء الأمويون والعباسيون يتوارثونها كابرا عن كابر. حتى قيل انها وصلت الى خلفاء بني عثمان.

وامتدح كعب في احدى قصائده قريشاً والمهاجـريـن. وغمـز مـن قنـاة الانصار لغلظتهم عليه. فأنكرت قريش قـولـه. وقـالـوا لـه «لم تمدحنـا إذ هجوتهم» ولم يقبلوا منه ذلك وعظـم على الانصـار هجـوه فشكـوه، فقـال يمدحهم:

مـن سرّه كـرم الحيـاة فلا يـزلْ في مِقْنـب مـن صـالحي الأنصـارِ
البـاذلين نفـوسهـم ودمـاءهـم يـومَ الهيـاج وسطـوة الجبّـارِ
يتطهـرون كـأنـه نسـكٌ لهم بـدمـاء مـن قتلـوا مـن الكفّـارِ

وواضح أن رسول الله ﷺ، قد قبل انكار كعب حين ادعى انه لم يقل «المأمور» وانما قال «المأمون»، وقبل منه أن يهجو الأنصار ثم يعود الى مديحهم، ورضي أن يسامحه على ما سبق أن صدر عنه، وزاد عليه، بأن أهداه بردته الكريمة، مع أن كعبا لم يكن يطمع بأكثر من العفو: «والعفو عند رسول الله مأمول»!!

أفلا نرى من خلال هذه الواقعة التاريخية، نوعاً من التكريم المميّز، صدر عن رسول الله ﷺ، لصالح الشاعر كعب بن زهير، وأكاد أقول: لصالح الصحفي كعب بن زهير؟!

أولا نرى في هذا التكريم المميّز نوعا من التوجيه السديد حول العلاقة بين الدولة والصحافة؟!

هذا هو المثل الأول الذي جرى في عهد رسول الله ﷺ، وأما المثل الثاني، فقد جرى في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه أنّ «الحطيئة» كان شاعراً هجّاءاً، لا يسلم انسان من شرّ هجائه، ويبدو أن هجاء الناس كان سليقةً في دمه وضميره حتى أن أمّه لم تنجُ من هجائه فقال فيها فيما قال:

جـزاكِ الله شراً مـن عجـوزٍ ولقّـاكِ العقـوقَ مـن البنينِ
لسـانـك مبرد لا خيرَ فيـه ودرّك درّ جـاذبـة دهينِ

بل انه هجا نفسه، حين لم يجد من يختصه بهجائه فراح يقول:

أبـت شفتـاي اليـوم إلا تكلّماً بشرٍّ، فما أدري لمن أنـا قـائلـه

وجعل يدهور هذا البيت في أشداقه، ولا يرى انساناً، حتى اطلع الى حوض ماء رأى فيه وجهه فقال:

أرى لي وجهاً شـوّه الله خلقـه فقبّـح مـن وجـه وقبّـح حـاملـه

وكثر هجاء الحطيئة للناس، فجاء الزّبرقان بن بدر الى عمر يشكو الحطيئة لقوله في الزبرقان:

دع المكـارم لا تـرحـلْ لبغيتهـا واقعد فانك أنت الطاعـم الكـاسي

فقال عمر للزبرقان، ما أسمع هجاءً، ولكن معاتبة، فقال له الزبرقان: أوما تبلغ مروءتي الا أن آكل وألبس! فقال عمر: عليّ بلبيد، وسأله عن ذلك فقال: «ما يسرّني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه، وأن لي حمر النعم». وأمر عمر بالحطيئة وسجنه في نقير، في بئر.

وطال سجن الحطيئة، حتى أرسل للخليفة يسترضيه، ويستجديـه العفو، ويذكر أهله وصغاره ويقول:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

فأخرج عمر الحطيئة من سجنه وقال له: إيّاك وهجاء الناس، قال: اذن، يموت عيالي جوعاً، هذا مكسبي ومنه معاشي، فقال عمر: عليّ بالكرسي فأتي به فجلس عليه، ثم قال: اشيروا عليّ في الشاعر، فانه يقول الهجر وينسب بالحرم ويمدح الناس ويذمّهم بغير ما فيهم، ما أراني الا قاطعاً لسانه ثم قال: عليّ بالطست، فأتي به، ثم قال: عليَّ بالمِخصف، عليَّ بالسكين لا بل عليّ بالموسىٰ فهو أوحى... فقالوا: لا يعود يا أمير المؤمنين، فأشاروا اليه، أن قل لا أعود، فقال: لا أعود يا أمير المؤمنين، فقال له: النجاء، فولّى، وقال عبدالله بن المبارك، على رواية صاحب الأغاني، «أن عمر رضي الله عنه، خشي أن يصبح قطع اللسان سنّة فأراد أن يؤكّد الحجة على الحطيئة، فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم، فقال الحطيئة في ذلك:

وأخذتَ أطرافَ الكلام فلم تدعْ شتماً يضرّ ولا مديحاً ينفعُ
وحميتَني عِرض اللئيم فلم يخفْ ذمّي، وأصبح آمناً لا يفزعُ

والسؤال الآن: لماذا لم يقسُ عمر على الحطيئة، القسوة القاسية، مع أن الحطيئة كما وصفته كتب الأدب، «كان جشعاً سؤولاً ملحفاً، دنيءَ النّفس كثيرَ الشرّ، قليلَ الخير، بخيلاً، قبيحَ المنظر، رثَّ الهيئة، مغموزَ النَّسب فاسدَ الدّين».

لماذا لم يقسُ عليه عمر بن الخطاب، ولماذا دفع له من بيت مال المسلمين ثلاثة آلاف درهم، مع أن عمراً كان قادراً على معاقبته وعلى الزامه بالصمتِ الى الأبد؟!

في رأيي ان عمر بن الخطاب، أراد أن يتأسّى برسول الله ﷺ وبما صنعه مع كعب بن زهير، ولعله أراد أن يصون حرية الشعر، كما نصون اليوم حرية

الصحافة، ولكن لا صيانةً لجرائم القول الظالم، بل صيانةً لحرية القول النزيه، ولهذا أطلق له حريّة القول، واسترضاه بمبلغ من المال ليصون حقوق المواطنين وكراماتهم، فلا يستغلّ الحطيئة هذه الحرية لتحقيق كسبٍ دنيء، وربحٍ رخيص.

هذان مثلان أحدهما من السيرة النبوية، وثانيهما من سيرة عمر، أفليس فيهما معان واسعة من مفاهيم حريّة القول ضمن حدود القانون، ومن مفاهيم المعاملة المميّزة لأصحاب الفكر والقلم.

وبالطبع لا يرضى أحد للشعراء (ولا للصحافيّين) أن يكونوا في المستوى الاخلاقي الذي عاش فيه الحطيئة وسار عليه، ولكننا نريد من سلطات الدول الاسلامية، أن تكون في مستوى الدروس التوجيهية التي رسمها رسول الله ﷺ، وسار عليها أصحابه من بعد، في كيفية الحرص على تمكين الصحفي من العيش عيشاً كريماً، لا يحاربه أحد في حريته ولا في رزقه، فيبقى نزيهاً نقياً، لا يمدّ يده الى فعل منكر، ولا الى مالٍ محرم، فيضع موضع الاقتناع من نفسه، تلك الكلمة المأثورة: «تجوع الحرة ولا تأكل بثديها» كما لا يتعرض لتجربة يقول فيها: يكاد الجوع أن يكون كفراً. وما أسعد الأمة التي يكون لديها صحفيون مؤمنون بواجبهم، وبحق ربهم ومعتقدهم وأمتهم ووطنهم الكبير.

وتاريخنا العربي الاسلامي، حافل بأمثال هذه الشواهد التي تؤكد حرية الشاعر (أي حرية الصحفي) كما تؤكد تكريمه ومعاملته معاملة مميزة سبقْنا بها العالم الأجنبي بما يقرب من ألف وأربع ماية سنة، ولعلّنا لا ننسى الكثيرين من شعراء العصور الاسلامية المختلفة، وبينهم الشاعر النصراني التغلبي «الأخطل» الذي بلغ من تمتعه بحريته الكاملة، أن يدخل على الخليفة الأموي، وهو مخمور من كثرة سكره فيقول الشعر الذي يريده، بكل ما فيه من تحدٍّ وتعريض، حتى بلغ من قوله للخليفة:

خرجت أجرّ الذيل تيهاً كأنّني عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

وقوله :

ولستُ بصائمٍ رمضانَ يوماً ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي
ولست بزاجرٍ عنسا بُكوراً إلى بطحاء مكة للنجاح
ولستُ بقائمٍ كالعيْر أدعو قبيل الصبح حيَّ على الفلاحِ
ولكني سأشربها شمولاً وأسجد عند منبلج الصباحِ

فهل هناك، حرية، وهل هناك تكريم للشاعر أو للصحفي أوسع من هذه الحرية وأبلغ من هذا التكريم ؟! مع العلم أن بني امية لم يمنحوا هذا الشاعر هذه الحرية لمجرد الحرية بل لأنه كان شاغراً فحلا (أو صحفياً كبيراً) فاصطنعوه واكرموه ليرموا به اعداءهم، وقد رماهم الاخطل فعلاً بشعره، ونزل عليهم نزول الداهية الدهماء.

وبعد، فلعلي لا أطيل عليكم في ختام هذه المحاضرة، اذا رويت لكم حادثة شخصية جرت لي في مطلع الخمسينات مع العالم الجليل والسياسي الكبير الأستاذ فارس الخوري، الذي شغل أرقى المناصب العربية والعالمية، بينها رئاسة مجلس النواب السوري ورئاسة مجلس الوزراء لمرات عديدة، وبينها رئاسة مجلس الأمن الدولي، ورئاسة محكمة العدل الدولية في لاهاي، فهذا الرجل كان سياسياً من ألمع رجال السياسة العالميّين، ومن أكثرهم علماً وفهماً وبُعدَ نظر.

في مطلع الخمسينات، كانت النية متجهة الى وضع دستور جديد للدولة السورية وكان من متطلبات الشعب السوري، أن يتضمن الدستور الجديد، نصّاً صريحاً يقول: (ان دين الدولة الاسلام).

ولقد وقف بعض المسيحيين والسياسيين العلمانيين وعدد كبير من مؤيّديهم ضد هذه الدعوة، وساروا فيها وراء زعمائهم وبينهم الأستاذ فارس الخوري، ووقف في مقابلهم عدد كبير من النواب والسياسيّين المسلمين والزعماء

الإسلاميّين، مصرّين على ادراج هذا النص في الدستور الجديد.

ووقعت تدخلات خارجية وأجنبية، وكادت أن تقع فتنة في البلاد كبيرة، تلافاها قادة القوم بايراد نص بديل متفق عليه، جرى أدراجه في مقدمة الدستور التي اعتبرت جزءاً لا يتجزأ منه، وكان الاتفاق أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً رئيسياً للتشريع في الجمهورية العربية السورية.

في تلك الفترة، حيث كانت جريدتي: « المنار » ناطقة باسم الهيئات والجمعيات الاسلامية، ومعبرة عن أفكار أعضائها وتطلعاتهم، كان من الطبيعي أن يكون « للمنار » دور رئيسي في قيادة المعركة على الصعيد الصحفي بغية تثبيت النص القائل: « دين الدولة الاسلام » وكان من الطبيعي أيضاً أن ينصب هجوم « المنار » على الأستاذ فارس الخوري باعتباره أكبر زعماء الجبهة المتصدية واستعرت بيننا وبينهم المعركة، فلم يخل عدد واحد من جريدة « المنار » أيام تلك المعركة من مقال افتتاحي ضد فارس الخوري ولم يخل عدد واحد من النيل من سياسته والهجوم عليه بأقلامٍ قاسية وألسنة حداد.

وانتهت بعد لأي المعركة واتفق الفرقاء المعنيون على الحل الوسط الذي أشرنا اليه وهو حل معقول ومقبول، جنّب الله به البلاد والعباد شرّ فتنة عمياء، لا أغالي اذا قلت إنها كادت أن تطيح باستقلال البلاد.

ومع انتهاء المعركة فوجئت بالاستاذ الجليل فارس الخوري يزورني في مكتبي، ويعرض عليّ صلحاً كريماً، ويدعوني الى مأدبة غداء يقيمها في منزله تكريماً لي ولبعض زملائي الصحفيين، ودعاني الى تناسي حملات المعركة وكل ما جاء فيها من تعريض والى فتح صفحة جديدة نعود بها الى علائق الود العميق والتقدير المتبادل.

وانني وقد مضى على هذه الحادثة أكثر من ربع قرن، لا أنسى الكلمات الحلوة التي قالها لي يومئذ ذلك الشيخ الوقور، وأنا يومئذ في ريعان شبابي وهو

في عنفوان شيخوخته ومكانته، قال:

« ان على السياسي الناجح أن يحرص دائماً على صداقة الصحفيين، وان العاقل منهم، هو الذي يحول دون عداء الصحفيين لشخصه ولسياسته، وأن الواجب على كل انسان بعيد النظر أن يبادر الى الاتصال بالصحفي، اذا نشر الصحفي ضده، أي خبر أو مقال، كي يوضح له وجهة نظره، ويصحح له معلوماته، وليحذر السياسي اهمال هذا الاتصال، لأن ذلك سيحمل الصحفي على متابعة النشر وعلى توسيعه بالغرر!! وتوشيته بالطرر!! فيخلق للسياسي الكثير من المتاعب بينما تحول المبادرة الشخصية دون هذه المتابعة، أو تحول دون تسعيرها، هذا اذا لم نقل بأنها اذا استمرت فستستمر بشكل لطيف ومهذب.

وقال لي فارس الخوري أيضاً:

« أنا ضدّ ذهاب السياسي الى ساحة القضاء، من أجل مقاضاة الصحفي الناشر لأن هذا يتيح له فرصة نشر وقائع كل جلسة من جلسات المحاكمة، كما سيتيح له فرصة التشهير والتطويل، ولهذا يبقى الاتصال المباشر، أجدى في طي القضية، وأفعل في حصرها ضمن أضيق نطاق ».

هكذا كان رأي شيخ السياسيين العرب في ذلك الحين، بالنسبة للعلاقة بين الحكام ورجال الصحافة، وهو رأي سديد، ما في ذلك شك، لأنه يرسم طريق التسامح الأخلاقي للتعامل الحسن بين الصحفيين والسياسيين، وهو اذا كان يفيد رجال السياسة في حصر خصوماتهم ضمن أضيق نطاق ممكن، فانه يفيد الصحفيين أيضاً ويدعوهم الى الابتعاد عن شطط القول وحمأة الخصومة.

بعض
المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- كتب الحديث الشريف.
- تاريخ ابن خلدون
- الكامل في التاريخ لابن الاثير.
- مروج الذهب للمسعودي
- تاريخ الامم والملوك للطبري.
- التاريخ الكبير لابن عساكر الدمشقي.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.
- خطط الشام ـ محمد كرد علي.
- نفح الطيب ـ للمقّري
- عيون الاخبار ـ لابن قتيبة
- الاغاني ـ لابي الفرج الاصفهاني.
- البيان والتبيين ـ للجاحظ.
- الكامل للمبرد.
- الحيوان ـ للجاحظ.
- زهر الآداب للحصري القيراوني
- معجم الادباء ـ ياقوت الحموي.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة.
- ادباء العرب ـ بطرس البستاني.

- الحماسة - لأبي تمام
- الحماسة - للبحتري
- الغزالي - الدكتور احمد فريد رفاعي
- أحياء علوم الدين - الامام الغزالي
- معجم البلدان - ياقوت الحموي
- الأعلام - خير الدين الزركلي
- المرأة العربية - عبدالله عفيفي
- المرأة بين الفقه والقانون - الدكتور مصطفى السباعي
- دائرة المعارف الاسلامية
- دائرة معارف القرن العشرين
- الموسوعة العربية الميسرة

وهناك عدد كبير من دواوين الشعر وكتب اللغة والأدب والتاريخ لم نذكرها لأنها غير أساسية.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
القسم الأول: قطوف اجتماعية ٩
رمضان في المجتمع الاسلامي ١١
الأدب الاجتماعي عند الامام الغزالي ١٧
استقصاء طريف حول الاسماء والكنى والألقاب ٢١
التفاؤل والتطيّر عند العرب ٢٩
التمائم والرّقى في جاهلية العرب ٣٥
طاولة الزهر... على مدى التاريخ ٤٠
القسم الثاني: قطوف تاريخية ٤٥
مدينة دمشق... هل بناها الأنبياء ٤٧
الطاغية تيمورلنك... يتبرك بالأولياء ٥٩
هل القرد... أصل الانسان؟! ٧١
آدم وابليس... يتكلمان بالعربية ٧٧
القسم الثالث: قطوف حضارية ٨٧
القرآن الكريم... والهبوط على القمر ٨٩
هل النار مأهولة؟ والهواء مسكون؟ ٩٤
مشروب الشاي... الخمرة المحلّلة ٩٨

مشروب القهوة بين الدّين والمجتمع ١٠٥
الرسالة البريدية على درب التاريخ ١١١
العصا... رافقت تاريخ الانسان ١١٧
مملكة النمل وحياته الاجتماعية ١٢٦

القسم الرابع: قطوف أدبية ١٣٣

رمضان... في الأدب العربي ١٣٥
حكاية شاعرة تحيّر فيها الشعراء ١٤٣
أديرة النصارى في سيَر الخلفاء ١٥٣
الأمثال... في أدب العرب ١٦١
الشيب... في أدب العرب ١٦٥

القسم الخامس: قطوف صحافية ١٦٩

النص الكامل لمحاضرة عنوانها:
طرائف الصحافة بين الدين والأدب والتاريخ ١٧١